# خريطة الطريق نحو الإصلاح
## (سلسلة من ثمان مقالات)



بقلم

د/ سيد القمنى

مدونة

عن مصر أتحدث

3an-misr.blogspot.com

**هذا الكتيب يجمع ٨ مقالات نشرهم دكتور القمني على مدونته، و على موقع الحوار المتمدن، فجمعناهم هنا لتسهيل عملية القراءة و المتابعة بلا بحث و عناء**

**المقالات مرتبة كما نشرها دكتور القمني**

**تم تجميع هذه المقالات و تنسيقها بواسطة فريق عمل مدونة**

**عن مصر أتحدث**

**http://3an-misr.blogspot.com**

**مواقع نشر مقالات دكتور القمني:**

**http://quemny.blog.com**

**http://www.ahewar.org/m.asp?i=1597**

# المحتويات

# انتكاسة المسلمين إلى الوثنية

معظم دول الإسلام ، أو رجل العالم المريض ، تأتي في مرتبة أكثر البلدان تخلفاً على كل المستويات ، و ما زاد الأمر نكاية هو الصحوة الإرهابية التي جعلت من المسلمين أصحاب الحظ الأوفر في العمليات الإجرامية الأشد بشاعة في العالم ، مما استجلب على المسلمين عداء العالم كله ، في وقت يشكلون فيه أشد الشعوب تخلفاً و ضعفاً و ما أكثر عددهم و ما أكثر هزائمهم ، و هو ما استتبع ليس العداء فقط ، بل الاحتقار و الحصار و معاملة المسلمين معاملة ترويضية ، كمن يروض حيوانات مفترسة لم يرتق إدراكها بعد ، و لا تملك حساً أو ضميراً إنسانياً ، فيطعمه و يسقيه بالمعونات لكن يحدد له دوراً لا يتجاوزه ، و يقسو عليه أحياناً أخرى فيحاصره ليتم تحجيمه باستمرار ، و يحافظ على بعضهم من الإنقراض كحفرية حية ، و يترك بعضهم في مناطق أخرى يأكلون بعضهم في فوضى خلاقة حتى تصفو النيران عن رماد خامد غير ضار.

و بسبيل العثور على ثقب في هذا الواقع الآسن نحو تغيير و إصلاح يؤدي إلى خلاص و انعتاق منطقتنا مما هي فيه ، انقسم المفكرون في بلاد المسلمين على أطيافهم من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، إلى فريقين رئيسيين : فريق أرجع الأزمة إلى عدم التزام خير أمة أخرجت للناس بدينها حسب الأصول ، و هو ما يجعلها تطلب النصرة السماوية فلا تستجيب السماء لها ، بل تنزل بها النوازل و الإهانات و الكوارث تقفو بعضها بعضا ، في عملية تأديب ربانية للأمة كلها ، و ذلك لأنها فرطت في فروض و حدود دينها و تأثرت بما عند الشعوب الأجنبية من أساليب عيش هي على النقيض مما جاء في إسلامنا ، لذلك حقت علينا النقمة الإلهية ، و لا حل إلا بالعودة الكاملة الخالصة لهذا الدين و الالتزام الدقيق بأوامره و نواهيه و فروضه و حدوده الشرعية و أخلاقه السامية ، و التسنن الكاملة بسنة رسول الله (ص) و سنن الراشدين الهداة المهديين. و عندما يتيقن ربنا من استئهالنا للرحمة حسب معاييره ، و قدر رضاه عما حققنا من حسن عبادة و إخلاص ، فإنه سيتدخل بنفسه لإنقاذ أمته التي اصطفاها لقيادة العالمين ، و هذا الفريق هو الأكثر انتشاراً بين جماهير المسلمين.

و يغلب على هذا الفريق روح التنظيم لتعودهم على الطاعة المطلقة ، فيشكلون جماعات شديدة التنظيم و الانضباط و الاستجابة الحركية السريعة ، تبدو بينها على

السطح خلافات في الدرجة لكنها غير نوعية ، فهي تتوافق جميعاً على الأهداف و إن اختلفت الأساليب ، و يزعم هذا الفريق أننا قد جربنا العلمانية (يقصدون الدكتاتوريات العسكرية) و النظام الجمهوري و النظام الملكي و الاشتراكية و الرأسمالية ، و سقطت جميعاً و سقطنا معها في المزيد من التخلف و الانهيار ، و لم تجلب تلك التجارب سوى الهزائم المتتالية دون خلاص واضح في المستقبل المنظور ، و لا يبقى سوى استيلاء أنصار هذا التيار على الحكم ليحكموا المجتمع حكماً إسلامياً ، أو بالأحرى أن يفرضوا سلطانهم من خلف ستار لحكام مدنيين أو عسكريين شكليين ، بحيث يكونوا هم المرجعية في اتخاذ أى قرار أو إصدار أى قانون ، و أن يكونوا هم الهيئة المحاسبية الأولى الرقابية ، دون أن يحكموا بشكل ثيوقراطي مباشر ، و بموجب هذا الشكل من الحكم تتم الأسلمة الكاملة للمجتمع و الدولة ، و عندئذ سوف يتدخل رب السماء لينصر أمته و يعيد لها أمجاد الفتوحات ، كما نصر السلف و هم أراذل أذلة.

أما الفريق الآخر (العلماني) فقد ذهب مذهباً هو على النقيض بالمرة من الفريق الأول ، و هو الأقل انتشاراً بين الجماهير لكنه الأكثر قدرة على الوصول إلى حلول علمية ،و الأكثر منطقاً ، و الأقوى حجة ، و يستند إلى الواقع الملموس في نجاح العلمانية أينما طبقت. لذلك تتم محاربة هذا التيار و طعنه لدى المسلمين بكونه يناهض الدين و يناوئه ، حتى لا يصل إلى الناس أصحاب المصلحة فيه ، و يعاني هذا الفريق إضافة إلى التحريض ضده وتبخيسه و تكفيره و تخوينه ، من خلل شديد أصيل في بنيته ، لأن العلمانية أو الليبرالية هي حرية فردانية بطبيعتها و بما تتضمنه من مفاهيم ، فيكون الفرد عصياً على الانضباط و التنظيم الحركي ، و لا يخضع العلماني إلا لقوانين العقل و العلم و الأصول الحقوقية و الدستورية للمجتمع المدني ، التي يطيعها عن قناعة و إيمان بحفظها لسلامته و سلامة المجتمع. لذلك فالليبرالية لا تقوم في مجتمع إلا عندما تنتشر بقوتها الذاتية ، و قدرتها على الإقناع و ما تملكه من وسائل و أدوات للأمن الاجتماعي ، و ما تحظى به من أدوات علمية تقدم بها نفسها مدعومة بالبرهان و الدليل مع نضوج الأوضاع الاجتماعية لقيام طبقة صاحبة مصلحة فيها تؤسس لها و تحميها و هو الدور الذي أنجزته في أوروبا الطبقة البورجوازية بعد الثورة الصناعية.

و الفريق العلماني بالطبع لا يرجع الأزمة إلى تأثر المسلمين بثقافات غير إسلامية ، بل يرى أنهم أبعد ما يكونون عن هذه الثقافات بعداً سحيقاً ، و لا يرى أن مصائبنا تبدأ مع الاستعمار الحديث و سقوط الخلافة ، لأن الخلافة كانت قد مرضت و شاخت و كانت فقط تنتظر من يعلن وفاتها ، بل أنها كانت هي مصيبة هذه المنطقة من العالم ، و أن الاستعمار لم يكن سبب ضعفنا ، باحتلاله بلادنا ، لأنها كانت

ضعيفة أصلاً مما سمح للآخرين بالتعدي عليها ، فضعفنا أصيل في بنيتنا الثقافية و كان هو سبب الاستعمار و ليس نتيجته. و من ثم يعيد هذا الفريق أزمة المسلمين إلى تمسكهم بتراثهم الذي تجمد و تجمدوا معه ، و هنا ينقسم هذا الفريق (العلماني) إلى موقفين (إضافة إلى الإشتراكيين) :

- موقف يرى أن الخروج من الأزمة يتطلب التحرر التام و الإنعتاق الكامل من سلطة التراث الإسلامي أو أى دين آخر، الذي يعوقنا عن التقدم و التكيف مع العصر.

- موقف آخر يرى أن المأثور الإسلامي جزء لا يتجزأ من ثقافتنا يستحيل إجراء قطيعة تامة معه ، لأنه هدف غير قابل للتحقيق بالمطلق، لذلك فالحل يكون بإعادة قراءة هذا المأثور الهائل و إعادة تصنيفه و تبويبه ، و تجديد فهم النصوص بما يتلاءم مع مصالح البلاد و العباد و ظروف العصر و مقتضياته ، و صاحب هذا القلم يعتبر نفسه ضمن أصحاب هذا الموقف الثاني من التيار العلماني ، و يرى وجوب أن يتم هذا التجديد أو القراءة الجديدة بما لا يصدم الإيمان الإسلامي ، و دون الدخول في صراع طائفي مذهبي بين القراءات ، أى تقديم قراءة تصالحية سلامية للمسلمين قادرة على مواكبة المستحدثات في عالمنا الدؤب تغيراً و تبدلاً ، مع الطموح إلى أن تحوز هذه القراءة رضى المسلمين و أيضاً رضى غير المسلمين ، و هي مهمة بهذا الشكل تبدو عسيرة بل و ربما مستحيلة ، لكنا سنحاول تجاوز هذه الاستحالة في هذه المجموعة من الدراسات مستعينيين بحب جارف لهذا الوطن و للناس في هذا الوطن ، و إيماناً غير مشوب بقدرة الإسلام و المسلمين على تجاوز كبوتهم التاريخية.

لأن أزمة المجتمعات الإسلامية تنهض على واقع مختل ، تحزبت فيه المجتمعات الإسلامية لدينها و تراثها ، بينما هذا التراث تحديداً ما عاد يتجدد أو يتبدل كما كان في حياة صاحب الدعوة عندما كان الوحي يستجيب للمتغيرات ، فكان الله في حياة صاحب الدعوة يتفاعل بوحيه جدلاً أخذاً و عطاء مع حركة الواقع المتغير ، فكان يُنسى آيات و يُبدل أخرى و يرفع و ينسخ و يمحو و يثبت آيات غير آيات ، و حديث غير سابقة و فعل نقيض سالفة ، و يتطور مراعياً وقائع الأرض و ظروفها المادية البحت. و بوفاة صاحب الدعوة و توقف علاقة السماء بالأرض ، تجمد المسلمون عند آخر نص في تطور الأحكام ليعتبرونه حكماً نهائياً صالحاً لكل زمان و مكان ، بينما هو في حقيقة الأمر و دون أي تجن هو خارج المكان و الزمان ، و

الرؤية الوحيدة القادرة على جعله صالحاً لكل زمان و مكان ، تنبع من داخل الإسلام و من ميكانيزمات تكون الوحى خلال ٥٣ سنة ، فالدرس و الأغراض النهائية فيه ، هو إثبات مبدأ التغير و التطور مع كل جديد ، و ليس الوقوف عند آخر تطور حدث في حياة صاحب الدعوة ، لأن التطور و التغير هو قانون الكون الأوحد الثابت.

و الخطورة اليوم ليست على دين الإسلام ، فالدين ، أى دين ، لا يموت و لا يندثر و لأنه فكرة ، لأنه ثقافة ، فلازالت الجميلة بين الآلهة الرافدية (عشتروت) تحاط بالرعاية و التكريم في كل ثقافات العالم و في و في كل متاحف الدنيا ، يحيط بها عشاق من كبار العقول الأركيولوجية و فلاسفة التاريخ و الأديان ، مثلها (إيزيس) المصرية ، مثلها (أدونيس) الفينيقي ، و (البعل) الشامي ، مثلها قصة الخلق المصرية ، و البابلية ، و ملحمة جلجامش ، و حكايات ملقارت ، و ملحمة الطوفان البابلي ، كلها محل احترام و لم تفن ولازالت من التاريخ ، بل وجدت عشاقاً من لون آخر و نوع آخر ، و من انتهي من التاريخ هم البشر من أتباعها و عبادها. الخطورة ليست إذن على دين المسلمين ، فالدين له صاحب كفيل به ، الخطورة الحقيقية هي على المسلمين من الزوال الوجودي من عالم البشرية بالاندثار التام ، بعد أن غابوا عن هذا الوجود كفكرة و فعل و عطاء ، و غرقوا في مستنقعات الجهل الخرافة و التخلف و الجمود و الاستبداد و الانحطاط الخلقي و الإنساني ، رغم أن المسلمين يشكلون حوالي خمس البشرية على الأرض. هنا الذعر الحقيقي أن تطول الأزمة بالمسلمين فيغيبوا وجوداً كما غابوا حضوراً ثقافياً ، و هم حسب ما نعتقد كمسلمين المكلفين بالشهادة على الناس ، بحسبانهم أمة وسطا حسبما أخبر القرآن الكريم ، بينما هم لا عادوا أمة وسطا و لا طرفاً ، و لا هم أمة أصلاً بحالهم هذا ، و لو قلنا تجاوزاً أنهم أمة ، فهم أمة مريضة تصدر أمراضها كراهية و إرهاباً للعالمين.

و ينعي المسلمون على الغرب الكافر تحلله الأخلاقي و عريه و حرياته اللا محدودة ، و يعتقدون أن الأخلاق قاصرة على الإسلام و المسلمين ، و أنها الشئ الوحيد تقريباً الذي تملكه لذلك تعتز به و تنافح عنه و تباهي به الدنيا ، رغم أن الصحوة الإسلامية أثبتت عدم امتلاكها حتى هذا الجزء المعنوي الذي تتباهى به ، فأسقطت جميع القيم الأخلاقية دفعة واحدة ، فصار الكذب مباحاً بعقيدة (التقية) ، و أموال البنوك مستباحة لأنها ربوية ، و أموال غير المسلمين غنيمة مستباحة لأنهم محاربون شاءوا أم أبوا و سواء كان ذلك موافقاً فعلاً لشرع الله من عدمه ، هذا ناهيك عن فقه كامل يكرس الاغتصاب بملك اليمين يتم تدريسه حتى اليوم في الفقه على المذاهب الأربعة في مدارسنا الدينية. من الأزهر إلى طالبان، ناهيك عن استمرار الشيعة في العمل بنكاح المتعة ، إضافة لمسيار القرضاوي ، و زواج

الفرند عند الشيخ الزنداني ، و العرفي ، و مفاخذة الرضيعة كما أفتى خميني... إلخ ، و لا تفهم معنى الزنى هنا بالمرة ، و لا أين هي الأخلاق التي يفاخر المسلمون بها العالمين و التى تقف جميعاً عند أخلاق الجنس وحدها ، و هي الأخلاق المفقودة حتى في هذا العنصر الخلقي الوحيد الذي نتباهى به حجاباً و نقاباً دليلاً على عفتنا الجنسية التى هي كل الأخلاق بنظرنا.

المشكلة التى ستواجه الجديد هنا ، هو اعتقاد المسلم بعصمته ، و الكمال التام للتراث الإسلامي بكليته ، رغم أن التراث الإسلامي بوضعه الحالي قد اختلط فيه الإلهي بوجهة النظر الفقهية بالمذهب بالتأويل المناسب لعصر دون عصر ، بتقنين تشريعات على المذاهب المختلفة على ما بينها من اختلافات شديدة التباين و التناقض على أبسط الشئون ، التي لا تحتمل رأيين أو تفسيرين ، كما في حال الحدود التى تفعل العقوبات البدنية مثلاً ، فقطع يد إنسان ليست شأناً بسيطاً حتى تختلف المذاهب السنية الأربعة حول مستوى القطع : هل هو من الأصابع أم من الكف أم من الكوع أم نخلعها من الكتف خلعاً ؟ و هي آراء المذاهب الأربعة في مستوى القطع ؟ ! ، ناهيك عن القصور الشديد في هذه الشريعة عن مواكبة الزمن ، و هذا قول لا يشين الشريعة و لا يقلل من قيمتها ، فقط دون إغراق في المثالية يعتبرها في كثير منها كانت صالحة لزمنها وحده ، و مما لا يتوافق مع زماننا كمثال واحد ، كانت الشريعة تعاقب بالقطع على السرقة إذا كان المسروق في حرز أى في مكان مغلق ، لكنها لا تعاقب بالقطع على سرقة السائبة ، فهي ليست سرقة تستحق القطع ، كالسوائم الهائمة في الطرقات أو في البراري، و بتطبيقه اليوم ستكون سرقة السيارة غير مستوجبة للقطع لأنها سائبة ، بينما ستكون سرقة الكاسيت الموجود بداخلها هي العقوبة التي تستحق القطع ، لأنه في حرز حسب شريعتنا. المهم أن ذلك إنما يعني استحالة تطبيق العقوبات البدنية بشكل نضمن فيه العدل التام و عدم ارتكاب الإثم في الحكم ، **و هو ما يعني أيضاً أن الشريعة كما هي عليه الآن هي وضعية كأى قانون وضعي ، من وضع فقهاء لم يكن يأتيهم جبريل بالوحي.**

و من بين هذه الشرائع التي وقفت عند زمانها لا تريم حراكاً ، ويتم فرضها على واقعنا التشريعي و القانوني فيما يعرف بقوانين الأحوال الشخصية ، و التي هي الأشد مساساً بمعاش الناس اليومي ، قوانين الزواج و الطلاق التي لا تكترث لجريمة الخيانة إلا مع الأنثى المحرم عليها ما هو حلال للذكر ، فله الزواج بأربعة ، و له وطأ ما لا عدد له بما ملكت يمينه دون أن يعتبر ذلك زنا في حق الحياة الزوجية تستحق العقوبة و أقلها فسخ العقد برغبة الزوجة المتضررة ، و هو ما لم يحدث إلا بعد إقرار قانون الخلع في مصر ، و الذي يعيد للزوج كل مليم دفعه بعد

الأكل و المرعة و المتعة ، حتى تستطيع الزوجة أن تنال عتقها. هذا بينما شرائع البشرية كلها تعتبر إقامة أى علاقة خارج الزواج المفرد على أى لون كانت هي خيانة زوجية. و يحق للزوج طلاق زوجته دون إبداء أي أسباب ، و الشريعة على تنوعها الفقهي لا تعطي للزوجة أى حقوق بمجرد تطليقها أللهم إلا شروطاً سبق إشتراطها أو مؤخر صداق وافقا عليه ، و لسد هذا النقص الشديد اخترع الفقهاء كلّ حسبما ربنا قدره عليه ، بإلزام الزوج بنفقة لزوجته مؤقته ، لم يحدد مدتها و متى تتوقف (مثلاً عند زواج المرأة مرة أخرى لوجود من يعولها) ، و هي في الغالب لا تزيد عن مكافأة سنة ، أو نفقة بعدد القروء الأربعة ، إضافة إلى إجتهاد بسنة أخرى تكاليف على الزواج مقابل المتعة و تسمى نفقة متعة.

و هكذا انحرف المسلمون عن الميزة التأسيسية للإسلام التى تخصه بالفرادة بين الأديان ، و هى الاعتقاد في مقدس واحد هو إله مطلق فوق الزمان و المكان ، فاعتقدوا في عصمة رجال مثلنا يصل عددهم إلى الآلاف ، فقدسوا الصحابة استناداً إلى حديث : " أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم " ، و تعريف الصحابي هو من رأي الرسول و لو ساعة ، أي و لو لحظة ، و بهذا يكون تعداد الصحابة المقدسين بالآلاف ، و هكذا استبدل المسلمون جاهلية ما قبل الإسلام ، بجاهلية أكثر نكاية و أشد ضرراً ، تفتك بعقل المسلمين فتكاً ، و عادوا وثنيين ، و أشد ضراوة في وثنيتهم من الوثنيات التقليدية في تاريخ الأديان. بينما الإسلام نفسه كان واضحاً غير ملتبس في قصر القدسية و العصمة على كيان واحد في الوجود هو : الذات الإلهية ، و نعى الوثنيات و الشركيات و الراكنين إلى ما وجدوا عليه آبائهم الأولين ، و خاطب مصطفاه بكل صفات العبد التام العبودية ، و أنه مجرد حامل للرسالة ليس أكثر ، فلا هو رب و لا هو ملك و لا هو معصوم عن بشريته لأن المعصوم هو الكمال الإلهي وحده ، و مع ذلك أعطاه المسلمون أعلى صفات الألوهية و هي العصمة و الكمال ، و هو يناقض تاريخ جدل الوحى مع الواقع و تدخله الدائب لإصلاح مسار أو قررات أو مواقف أو تشريعات ، أخطأ فيها النبي ببشريته و فطرته.

فالنبي محمد (ص) في صحيح إسلامنا هوعبد من عباد الرحمن و نبي كريم ، أدي رسالة ربه تامة كاملة صافية بيضاء نقية ، و قد خشى النبى (ص) من أى قدسية قد تلحقه شخصياً إذا ما حفظ المسلمون كلامه (حديثه) إلى جوار القرآن كلمة الله التامة ، لذلك نهى و أكد النهي عن تدوين حديثه و أمر بوضوح : "لا تكتبوا عني سوى القرآن". و رغم ذلك سمح المسلمون بالتدوين عن نبى نهاهم عن التدوين (ومانطق عن هوى) ، بل و اختلاق الأحاديث المكذوبة ونسبتها إلية ، بل وحازت تلك الأحاديث قدسية في المذهب السني ترفعها فوق القرآن كرامة و فعلاً و قدسية ،

فقالوا أنها تنسخ آيات القرآن ، كما في إصرارهم على وجوب الاستمرار بالعمل بحد رجم الزاني المحصن استناداً للحديث وحده دون وجود نص في القرآن بهذا الحكم ، و إن كان حد الرجم في الأصل نصاً قرآنياً منسوخاً فالذي نسخه و ألغاه حتى اختفى من القرآن المدون ، هو صاحب القرآن ، رب العزة و الجلالة ، و ليس فقيهاً من الفقهاء ، "قاتلهم الله أني يؤفكون".

كل هذا الرتل مضاف إليه الزي المشيخي أصبح محل هيبة ورهبة و تقديس و عصمة و كمال مطلق ، حتى ألحق المسلمون القدسية بمن لا قدسية لهم من بشر كالصحابة مثل أبي بكر و عمر وعثمان وعلى وغيرهم ، أو كالمحدثين مثل البخاري ، أو الإخباريين كابن كثير ، حتى وصل التقديس إلى مشايخ وعاظ كالشعراوي مثلاً. فأصبحت تقام له المقامات و تعقد له الندوات و تصنع لتاريخه مسلسلات تعيد زمن المعجزات والألطاف الربانية ، المفتراة على رب العزة.

ترى... هل أهان المسلمون ربهم... فأهانهم وخسف بهم و كسف عنهم فصاروا عبرة للأمم عندما تضل بها المسالك إلى المهالك ؟ هذا هو أول الغيث القاسى و بداية التشخيص الموجع ، في خريطة الطريق نحو الإصلاح

# سقف المعرفة غاية مستحيلة

لازلنا نرصد مظاهر الحالة الإسلامية كأعراض لمرض عضال بحاجة ماسة إلى علاج ، و لعل أهم الأعراض المستعصية هي الاعتقاد السائد بين معظم المشتغلين بالشأن الإسلامي ، و هو الاعتقاد الذي عمموه بين المسلمين بامتلاك الحقائق النهائية و المطلقة ، عبر امتلاك الحكومات المسلمة لوسائل التثقيف العام من إذاعة و تلفاز و مسجد و مدرسة ، و هي أقوى عوامل تشكيل الرأى العام اليوم. هذا العرض المستعصي يقوم على اعتقاد أن السلف لم يتركوا شيئاً للخلف ليبحثوا فيه ، و أن الأمة قد عقمت من بعد خصوبة ، رغم أنها كانت خصبة إلى حد تعاصر فقهاء المذهب السني الأربعة خلال أربعين سنة فقط. و لكن لأن الزمان لم و لن يجود بمثلهم ، كما توافق علي ذلك الفقهاء من بعدهم ، فقد أصبحوا خاتمة البحث و نهاية الأزمان ، بعد أن وضعوا كل علم ممكن و انتهوا منه ، باختصار ، بلغوا نهاية العلم و سقفه الأخير. هذا رغم قصور البشرية جميعاً عن بلوغ هذا السقف ، و معرفتها أنها قاصرة عن بلوغه ، و أن هذا هو السبب الأساسي في التطور العلمي ، و الفكري النظري ، و التقنى ، و الفنى ، و الحقوقي ، و الاقتصادي ، و الاجتماعي ، و السياسي. بينما عندما يقول قوم أنهم قد بلغوا سقف العلم ، فهو ما يعني أنه لا مجال لكلام آخر ، و لا مجال لقول جديد ، و لا مساحة لقبول أي تغير. هذا كله في واد ، و الواقع قد تغير تغيرات هائلة بلغت فيه ما تحققه البشرية كل عام منذ عام ٢٠٠٥ ، ما يعادل ما حققته منذ وجود الإنسان على الأرض. و نصيب المسلمين من بلادهم في هذه الكشوف الهائلة كماً و كيفاً هو صفر عظيم.

إن عدم قدرة بلوغ نهاية العلم و المعرفة ، هو أس جوهرى في عملية التطور اللازمة للبشرية ، و زاد البشر على التطور الفيزيائي البيولوجي الميكانيكي الدائب و المستمر للكائنات ، أنهم تمكنوا من إعمال عقلهم في الطبيعة مما سرع بعملية التطور الإنساني بدرجات هائلة ما خطرت على قلب بشر. و من هنا فإن الاعتقاد بكمال المعرفة عند المسلمين هو عرض واضح و جلي لتردي أحوالهم هذا التردي المثير للشعور بالخزي و العار.

يعتقد المسلمون أنهم قد امتلكوا نواصي العلم كله ، وأنهم مكلفون بتعميم معارفهم على العالمين ، بل و فرضها على الكوكب الأرضي فرضاً ، و يحيلون كل النقائص إلى العالم المتقدم الذي سبقنا حقاً و صدقاً بما يقاس بالسنين الضوئية ، و يخلطون بين كراهيتنا التاريخية لهذا الغرب ، و بين مناهج هذا الغرب في التقدم و أساليبه في المعرفة و سبله للرقى و الغنى و الرفاة والسعادة.

و المشكلة التقنية و الاعتقادية في مثل هذا الاعتقاد ، هي أن المسلم (حسبما يعتقد) هو من سيُسأل عن أعماله وحده في نهاية الأمر ، و هو بإسناد أعماله إلى اعتقاد بكمال و تمام فقه و شريعة ، هي من علم و إنتاج بشر مثلنا يصيبون و يخطئون ، بعدما فارقت المبادئ الشرعية الأولى بساطتها إلى منطقة شديدة التعقيد بإضافات أهل الفقه و زياداتهم في دين الله. فبينما وضع القرآن ما لا يزيد عن سبع قوانين (شرائع) للمجتمع ، و بضع عشرات أخرى تأسيساً على الحديث ، فإن المذهب الشافعي مثلاً لديه ما ينوف علي ستة آلاف تشريع ، و مثلها في خزائن المذهب الحنفي و تتزايد في بقية المذاهب ، و هذه الآلاف من التشريعات جاءت كلها زيادة في دين الله ، و إذا كانت خاصية الإسلام هي التوحيد المطلق ، فمن غير المفهوم كيف يمكن للمسلم الجمع بين هذه العقيدة و بين خمس مجموعات مذهبية للتشريع تتضارب وتتناقض مع بعضها البعض. إن هذا الركون لأحكام وفق رؤية فقهية أو مذهب بعينه ، يجعل المسلم يعرض نفسه للمساءلة و العقوبة ، بل و ربما للتهلكة ، بل و ربما إلى الانقراض من البشرية ، و هي العقوبة التي لا يعفيه جهله بها منها.

هذا بينما المصري القديم ، كان يعرف منذ خمسة آلاف عام أن اكتمال المعرفة نقص و مرض ، أنظر ما قاله على لسان بتاح حوتب : " أنظر كيف يمكن أن تتعرض لمناوأة الخبراء في المجلس ، **إنه لمن الحمق أن تتحدث في كل ضروب المعرفة** / ول ديورانت / مقدمة موسوعة قصة الحضارة / ص ح ".

و اليوم نري المصري المسلم و قد ارتكس خلفاً إلى ما وراء زمن بتاح حوتب ، عندما قام يفسر : " و ما فرطنا في الكتاب من شئ " بأن القرآن قد حوى علوم الآولين و الآخرين فامتلك الحقيقة المطلقة ، و صار بإمكانه أن يتعرض لمناوأة الخبراء في المجلس ، و يظن أنه خبير يمكنه الحديث في كل ضروب المعرفة. بينما كل ما تحمله الآيات الكريمة خبراً مفاده أن القرآن الكريم لم يفرط في شئون التعبد و الدين من شئ ، و ليس التفريط في علوم الأركيولوجيا و البيولوجيا و الجينولوجيا و الكيمياء و الرياضيات و إدارة الدول و نظم الحكم و أساليب الاقتصاد و حقوق الإنسان و الديمقراطية ، لأن القرآن كتاب في الدين ، كتاب في الإيمان فقط ، و حسبه ذلك شرفاً و رفعة و فخراً و مجداً و سؤدداً أزلياً أبدياً.

و قد زاد المسترزقون من كهنة على حساب المواطنين من استفحال العرض وعوص هذه المشكلة ، و تجذيرهم الاعتقاد في امتلاك المسلمين للمعرفة التمامية ، و هؤلاء المسترزقون هم من قاموا يتاجرون بمأساة المسلمين ، ليحققوا ثروات خيالية من حكاية وهمية اسمها العلم و الإيمان ، كلها عبارة عن شعر فخر و هجاء و أحاديث سمر عربية حول نيران القبيلة و بعيرها في الليالي القمرية ، أحاديث

فخر ليس أكثر ، لأنها موجهة لنا و لا يعرفها أحد غيرنا ، هي سمر رتيب ممل تفخر بربنا الذي يتم وضعه وفق هذا التصور في موقع شيخ القبيلة المسلمة (حاشاه و هو الكمال المطلق) ، و هو شيخنا هذا الذي عرف كل العلوم القديمة والحديثة و المعاصرة التي اكتشفت و التي لم تكتشف بعد ، قبل كل العالمين ، و أعلمنا بها و وضعها لنا في كتابنا المقدس ، و لا تعلم اذا كان ذلك صحيحاً ، **فلماذا لم ينتج لنا أصحاب العلم و الإيمان اكتشاف واحداً إسلامياً أصيلاً من نصوص القرآن أو الحديث؟ كي نسبق به العالم و نفيد به بلادنا المعتوهة لكثرة ما تعاطت من مأثور تخديري أصابها ببلهنية بلهاء ، حتى كادت تصل حالة الموت التخشبي.** الكارثة أن عملية التهجين للمقدس بالعلم الإنساني كرست اعتقاد المسلم أنه بغنى عن معارف العالمين ، و عن العلوم كلها دفعة واحدة ، لأنه يعتقد أن بيديه أسرار الدنيا و مفاتيح الآخرة ، ما ذهب منها ، و ما لم يأت بعد ، و دون أن يجد المسلمون بعد كل تلك الأبحاث في العلم و الإيمان أي شئ ذي قيمة بين أيديهم.

و لأن الإسلام و علومة ليسا حكراً على طائفة بعينها دون المسلمين ، فإن الرهاب المكرس لعدم تجاوز فقهاء الأمة ، لم يوقف هؤلاء الفقهاء أنفسهم عن نقد سابقيهم و نقضهم ، و هو ما تجلى في رد أبي حنيفة النعمان على هذا المبدأ الباطل : "هم رجال و نحن رجال" ، فليس بين المسلمين آلهة و لا أنبياء بعد أن ختم محمد (ص) تواصل السماء مع الأرض. و من ثم فإن أول مطلب في روشتة العلاج هو الاعتراف بالمرض ، و أن التراث الإسلامي قد أصبح يحمل أوراماً سرطانية و اثقالاً كسحته عن مسايرة حركة التطور ، و أنه يجب أن يخضع لعمليات جراحية عاجلة مع تقويم و مراجعة و نقد قاسي ما أمكن ، لكن بشرط التزام العلمية الصارمة دوماً ، مع الفحص و التعديل و الإلغاء و الإضافة و الحذف ، مداً لحبل حكمة النسخ في الوحي ، و هي حكمة التدرج في الأحكام إلى مداها الطبيعي ، و هو التدرج الذي يقوم على مقاصد الشرع الكلية.

و لو صح أن اجتهاد فقهاء السنة الأربعة ، و بقية المذاهب بما فيها الجعفري (الشيعي الإثنا عشرى) ، أنها قد وصلت إلى سقف المعرفة ، و أنها أصبحت صالحة لكل زمان و مكان (و هي آفة فكرية لا يقول بها عاقل ، فلا شئ صالح لكل زمان و مكان بالمطلق ، و قولاً واحداً ، و لا يقول بذلك إلا من جهل أنه جاهل) ، و لو صح أن ما صلح لزمنهم صالح لزماننا ، فلماذا نحن أمة الله المتخلفة دون العالمين ؟

و مع اعتقاد المسلمين بصحة هذا المبدأ الباطل ، تم إغلاق باب الاجتهاد دون إصدار أى أوامر بإقفاله ،لأن إغلاقه قد أصبح من مستلزمات الشريعة و خصائصها

دون صدور قرار بذلك ، بعد أن أصبح غير ممكن تجاوز من وصلوا سقف المعرفة. و بدلاً من أن يعتبر المسلمون رجالات مأثورهم بداية لطريق تطورى اجتهادي طويل ، اعتبروهم نهاية الطريق ، فضرب الشلل كل مراكز التفكير في العقل المسلم. ماذا يمكن أن يقول المسلم لمن يقولون له : قال ابن تيمية ، و قال البخاري ، و قال عمر بن الخطاب ؟ هل سيخطر على بال مسلم أنه مطلوب منه أن يقول شيئاً بعد ما قال هؤلاء المقدسين ، ناهيك عن مخالفتهم أو إعمال العقل في نقدهم ؟ وفق هذا المعنى لابد أن يصاب اللسان بالخرس ، و يموت السؤال ، و يضرب الذهان مراكز التفكير، فلا يعود المسلم يميز بين الممكن و المستحيل ، فيضرب بإرهابه العالم متصوراً أنه سيسود العالم و يقيم دولة الله في أرضه ، و هو من بين أشد شعوب هذا العالم ضعفاً و جهلاً و تخلفاً !!

و بدلاً من أن يعتبر المسلمون أن تدرج التشريع درس لهم ليمدوا طرف الخيط على استقامته فيتدرجون بل و ربما ينسخون كثير من التشاريع مع المتغيرات ، حتى يبقى تشريعهم حياً فاعلاً ، فقد اعتقدوا أن هذا التدرج خاصية قرآنية ربانية لها علاقة بتواصل السماء مع الأرض عبر الملاك جبريل إلى نبيه (ص) ، و أن هذه الخاصية قد توقفت بتوقف الوحى بوفاة صاحب الدعوة ، و من ثم قرروا الوقوف عند آخر أحكام تطورت إليها نصوص الوحى ، و جعلوها أحكاماً نهائية ، قدسوها و جعلوها حكم السماء الأخير القاطع ، الذي لا يجوز تجاوزه على تغير الأحوال و اختلاف الأماكن و تبدل الأزمان ، هذا بينما (الفقه) نفسه يقوم على أسس نظرية لم يقم هؤلاء العارفون بالمطلق بتفعيلها فيما يبدو عن قصد و نية مبيتة للمسلمين ، فالفقه الإسلامي "لا ينكر و لا يستنكر **تبدل الأحكام و تغيرها بتبدل المكان و اختلاف الزمان**" ، و هو ما استند إليه الإمام الشافعي عندما غير من فتاواه في زمن واحد ، ما بين وجوده في العراق و بين وجودة في مصر. و من أبرز الأسس النظرية المعيارية المفترض أنها حاكمة ، الأساس الذي يجعل "**الحكم يدور مع العلة وجوداً و عدماً**"، و لا تفهم كيف يتم التجاوز عن هذه الأصول من فقهاء يركزون على ظاهر اللفظ و حرفية النص ، و يظلون فقهاء ؟ لا تعلم كيف ؟ ثم لا تعلم كيف أمكن لهم تضليل المسلمين كل هذا التضليل لمنافع و مكاسب دنيوية بحت ، و مكانة اجتماعية مرموقة ، و سلطة سيادية برغبة الرعية ، بدليل استكانة المسلمين إلى هذه المفاهيم التي تبدو ديناً جديداً غير ما نعرفه عن الإسلام في بكارته الأولى ، و عدم احتجاجهم على مشايخهم بل و تقديس هؤلاء الفقهاء ، فأى نازلة نزلت بنا أيها الناس ؟ !!

ضمن و بين هذه الأسس فلسفات في الإسلام و التشريع سبقت زمنها فتم قبرها لأنها كانت أكثر حرية من ممكنات احتمال الفقهاء الآخرين حينذاك ، فلسفات فقهية

اعتبرت الانسان هو غرض الله و غرض الرسالة ، و ليس الغرض مجرد العبودية لله ، فالله أكمل من ذلك و أرفع من ذلك و ليس بحاجة لعبيد ليتأله عليهم و يستعبدهم فيعبدون ، وأن الكتب المقدسة جاءت إلينا من أجلنا و ليس من أجل السماء ، لتيسير معاشنا لا لتعقيده ، و لجعل الدنيا أكثر راحة و طمأنينة و يسر، إسعاداً للبشر لا إثارة لكآبتهم و حزنهم رعباً من مكر الله و جهنماته المتنوعة ألواناً و أصنافاً من العذاب. فلسفة تعبتر الإيمان نعمة و سعادة لا اختباراً و امتحاناً عسيراً و مشقة و عنت و نقمة متربصة تقف من ورائها فكرة المكر الإلهي ، الذي كان يخشاه أعدل الخلفاء (عمر بن الخطاب) ، مع الفزع من جهنم و زبانيتها.

نظرة قامت على التفلسف أكثر مما خضعت لشروط الشافعي المستحيلة الواجب توافرها في المجتهد ، اعتمدت أكثر علوم الفلسفة جدلاً و حرية ، علم الكلام ، لتقيم عليه نظريتها الفلسفية الفقهية.

من بين هؤلاء الفقيه اللمعة الثاقب **(نجم الدين الطوفي الحنبلي)** ، الذي تجرأ على كسر أهم القواعد الفقهية (لا اجتهاد مع النص) فأباح الاجتهاد حتى مع النصوص الواضحة القاطعة المجمع بين الفقهاء على قطعيتها الثبوتية : النصية و الدلالية ، استناداً لاجتهادات الخليفة عمر مع نصوص قرآنية و حدود تشريعية ربانية قاطعة ، بالتعطيل و بالمخالفة و بالإلغاء (كما في إلغائه فريضة متعة الحج و فريضة متعة النساء و فريضة المؤلفة قلوبهم). لإختلاف المصالح بدوران الأزمان ، و من ثم قدر الطوفي **أن رعاية مصالح الناس تعلو على النص و الإجماع و تقدم عليهما** ، استناداً لقول النبي (ص) : "لا ضرر و لا ضرار" ، ثم لدينا نجم عظيم آخر من فقهاء اليسر و البهجة الذين أوسعوا من صفحات الاجتهاد نحو مزيد من الحرية هو **(الباقلاني)** ، الذي قلما يعرج إليه رجالات أزهرنا المبارك الشريف ، اشترط هذا الرجل للاجتهاد الصحيح التضلع في الفلسفة أو بالذات (علم الكلام) ، و اعتمد علم المنطق الأرسطي معياراً للاستنتاج الصحيح ، و لم ير في ألوف المباحث الفقهية العجيبة المتكاثرة و شروطها الأعجب المتناثرة أى ضرورة ، كل ما طلبه للمجتهد هو أن يعرف القواعد العامة لأصول الفقه و المعروفة بالمقاصد الكلية للشريعة و ما أيسرها ، لأنها تتلخص جميعاً في جملة واحدة هي : **مصلحة العباد** .

و ما أبكر مثل تلك المحاولات العبقرية التى تم إهالة الإهمال عليها ، حتى كادت لا تجد لنفسها مكاناً في أحاديث مشايخنا رغم ركوبهم إعلامنا ليل نهار، فهذا الإمام **(الجويني)** في القرن الثاني عشر ميلادي ، يؤكد أن المعرفة بمقاصد الشريعة كافية وحدها كأساس في الاجتهاد ، بتنزيلها على واقع الزمان و مستجداته و مشكلاته

التي لم تكن معلومة من قبل ، و الغرض من هذا التنزيل هو **مصلحة الناس أولاً و أخيراً ، و هو كله ما يقوم على مدركات عقلية بالأساس و ليست نقلية و لا نصية.**

من هنا ساغ للجويني الثاقب اللماع بين الفقهاء و(إمام الحرمين) أن يرنو للمستقبل ليراه و هو يتطور في قفزات هائلة ، حتى يأتي زمن على الناس لن يعملوا فيه بأصول الشريعة الإسلامية حتى تصبح الشريعة تاريخا غير فاعل ، و ربما غير موجودة نتيجة مفارقة الواقع لها ، لأن الواقع يتغير و يتطور بالضرورة دون أن ينال النص الديني ذات التغير و التطور. و من هذه الرؤية المستشرفة للمستقبل ينتهي الجويني بجرأة نادرة و بفرادة سبق بها زمنه إلى نتيجة غير مسبوقة ، و للأسف غير ملحوقة بين الفقهاء ، ينتهي الجويني إلى ضرورة تهيئة العقل المسلم و ترويضه حتى يمكنه التعامل مع ذلك الزمن الآتي بمنطق ذلك الزمان الآتي دون منطق الشريعة .

و منطق ذلك الزمان الآتي لاشك سيقوم على العقل ذاته و هو يمارس وظيفته ، لذلك يجب تدريب العقل المسلم على قبول الزمن الآتي ليتمكن من الحياة فيه و الفعل فيه ، و إن غابت نصوص الشريعة ، و يكفي المسلم أن يكون عالماً بالمقاصد الكلية للشريعة ، و **هذه المقاصد تحديداً و تدقيقاً هي مصلحة البلاد و العباد** ، و ها قد أتى ذلك الزمن الآتي الذي كان يتوقعه عن يقين و ترقب توقعه إمام الحرمين.

و بعد حوالي ثلاثة قرون احتاج الزمن المزيد من التنبيه إلى ضرورة التغير و التجديد و التحديث فظهر الإمام **(الشاطبي)** و ما أدراك ما الشاطبي ؟ **!** في جمل سريعة لا تعرض من هو الشاطبي الذي سبق زمنه و تجاوز فقهاء أزهرنا مجتمعين ، هو الذي أقام اجتهاده الفلسفي عوداً إلى فكرة المقاصد الكلية للشريعة ، فقام يستخرج من الشريعة مقاصدها بنوداً واضحات ، التي هي مصالح العباد دنيا و آخرة ، و أخضع هذا الاستخراج لمقدرات و لعادات واقع زمانه طالباً التبديل و التعديل وفق متغيرات الزمان و تقاليده و بشروط زمانه و مكانه ، لذلك اشترط الشاطبي علي الفقيه في الزمن الآتي أن يكون عارف بعلوم عصره و متصلاً بواقعه (ترى كم من فقهاء اليوم يدري شيئاً و لو يسيراً عن علوم عصرنا ؟) ،حتى ينزل مصلحة العباد أى المقاصد الكلية للشريعة على هذا الواقع ، ليحثه نحو مزيد من المصلحة. و ارتأى أن الفقه بحاله حتى زمانه هو لون من الإجابات المعدّة سلفاً لكل مسألة حدثت أو قابلة للحدوث أو متخيلة ، و الفقه بهذه الإجابات المسبقة لا يقف بهذا المعنى نداً للزمان الذي جاء بأسئلة جديدة لم تخطر على خيال فقهائنا القدامي ، و ليس لديهم إجابة عنها لأنها لم تكن قد وجدت بعد ، لذلك لابد أن يختلف الحكم بحسب ظروف الواقع ، مع مراعاة أن الأصل في الأشياء هو الإباحة و ليس

التحريم. و هو ما يعني تفسيراً دقيقاً لمعنى الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ، فالمعروف هو ما تعارفت عليه قيم و عادات زمانه ، و المنكر هو ما أنكره العرف الاجتماعي و قيم زمانه. و من ثم لم يعد المعروف أبداً من أصول الشريعة بحسبانه يعني الدعوة إلى الإسلام و شريعته ، أو هو إقامة دولة الله علي الأرض كما يزعمون.

و علي (**الطوفي**) و كسره الجرئ لقاعدة لا اجتهاد مع النص ، و علي (**الباقلاني**) و براحة العقلاني ، على (**الجويني**) و مساحته الحرة المنطقية العقلانية الصرف ، و على (**الشاطبي**) و طلاقته المصلحية ، و أن الأصل في الشرع كله هو الإباحة تيسيراً على العباد الذين تشكل مصالحهم الهم الأول للفقيه ، سنكمل مشوارنا الآتي مع خريطة التشخيص و الإصلاح.

# فلسفة الكمال فلسفة ضد الحياة

يلخص الدكتور **قرضاوي** الملقب بالفقيه المعتدل موقف فريقه المتأسلم من الفريق العلماني ، في قوله : "نوع من المفاهيم خطر على المجتمع ، زحفت على مجتماعتنا مع زحف الاستعمار ، و اتخذت الغرب لها قبلة و إماماً ، إنها المفاهيم المتعلقة بالدين و الدنيا ، الرجل و المرأة ، الفضيلة و الرذيلة ، التحرر و الجمود ، التقدم و الرجعية ، بالحلال و الحرام. المفاهيم المتعلقة بالحدود الفاصلة بين حرية الفكر و حرية الكفر ، بين حرية الحقوق و حرية الفسوق ، بين العلمية و العلمانية ، بين الدولة الدينية و الدولة الإسلامية. إنها مفاهيم الغزو الفكري التي تعتبر الإيمان بالغيب تخلفاً و التمسك بالسلوك الديني تزمتا ، و الدعوة إلى تحكيم الشريعة تطرفاً ، و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر تدخلاً في شئون الآخرين ، و اختلاط الرجل بالمرأة بلا قيود تحرراً ، و عودة المرأة المسلمة إلى الحجاب الشرعي رجعية ، و الانتفاع بالتراث تعصباً له ، و اعتبار علماء الدين حراساً للتخلف ، و دعاة التغريب أعلاماً للتنوير / كتاب ملامح المجتمع المسلم / ص ٧٧".

و هذا كلام خلاصته إدانة للعلمانيين الوطنيين بالعمالة للأجنبي ، بل و إدانة لهم بحرية الفسوق و الكفر فهم ليسوا فقط مرتدين ، و لا خونة فقط ، بل هم لا يمارسون مبادئ الأخلاق الكريمة ، و هم عملاء ناشطون لأعداء الإسلام ، و من ثم وضع الشيخ نفسه و جماعته في موضع القاضي ، الذي يملك من النزاهة ما يجعله يحاكم الآخرين و يحكم عليهم ، و هو أمر لا تفصح سيرة الشيخ عنه بالمرة و بالقطع و اليقين المعلوم ، فهو شخصية عامة تعرف الناس سيرتها، و هي سيرة لا تضعه أبداً فوق المسلمين ليحاكم و يصدر أحكامه ، هذا بينما العلمانيين يضعون هذا الشيخ و أمثاله في أسوأ موضع من الدين و من الناس ، فأزعم محتملاً وحدى مسئولية هذا الزعم حتى أثبته في السطور التوالي أن هذا الرجل متاجر بدين الله ضد مصالح عباد الله ، يفتي بالمطلوب مأجوراً في الدنيا و فراديسها و قصورها الغناء الفواره ، قبل الآخرة و نعيمها ، **واللهم نعم حسداً و نقاً و قراً على الشيخ غير القابل للقر و لا للحسد و لا للنق .**

يرى التيار العلماني أن التيار الذي يمثله هذا الشيخ كان نكبة على البلاد و العباد ، تحالف منذ صحوته مع كل الديكتاتوريات السياسية ، و ما خالف هذا التيار الحكومات أو تصارع معها إلا على حجم الأنصبة المطلوب هبشها ، و في صياغة تقريرية فإن ما أرساه الشيخ هو و جماعته في العقل المسلم كان تدميراً حقيقياً لهذا العقل ، بتأكيده أن الله قد سبق و منح المسلمين كل العلوم ، و كل القيم ، و كل النظم سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية و كل فلسفة السياسة و المجتمع ، كل هذا دفعة

واحدة وعلى يد رسول واحد ، تحققت على يديه تمامية المعرفة في أي شأن في شئون الكوكب الأرضي أو ما بعد الموت.

كل هذا طفح في شوارعنا شباباً ، تخرجوا من الجامعات لا يؤمنون بالعلم كحل لمشكلات الناس و الوطن ، شباباً إما جهلة جهلاً حقيقياً ، و إما لم يتعلموا علماً حقيقياً بقدر ما حفظوا شأناً لا علاقة لهم به ، كانت كل مهمته أن يصل إلى النجاح في الامتحان إن غشاً أو تدليساً أو حفظاً و مصمتا لا يعني أى دلالة أو معنى ، و غضت الحكومات البصر بالمرة عن وسائل الحصول على شهادات ترضي غرور الذات ، فوصل عدد الحاصلين على الدكتوراه في مصر إلى أكثر من مثيله في أمريكا ، لكنهم عندنا غثاء كزبد البحر أو هم كالعهن المنفوش ليس أكثر ، ربنا يقلل منهم لأنهم كالهم عالقلب ، فلا قيمة عندنا للمعرفة و لا قدسية للعلماء و إنما للمشايخ الدكاترة ، فلا نسمع عن بحوث تطرح إلا حول الحجاب و النقاب و فلسطين و العراق و الحكام الطاغوتيين و أمريكا و إسرائيل و البوسنة و كشمير و الشيشان ، و لا قيمة للوقت الذي إن لم تقطعه فرمك ، و لا قيمة لقيمة القيم (العمل) التى إن لم تحترمها انتهيت إلى الحيوانية فما يميز الإنسان عن الحيوان هو العمل المنتج. ثم على المستوى الأخلاقي يقرر المذهب السني (لا يدخل ابن آدم الجنة بعمله) بل بأدائه أوامر و نواهي ربه ، و بعد هذا لا يجب أن يكون شديد الإطمئنان ، بل عليه أن يرجو رحمة الجبار المكار!! .

طفحت الصحوة لا بارك الله فيها (أم هي أيضاً مقدسة لا يصح همزها أو لمزها ؟) ، طفحت في شوارعنا شباباً كانوا حلم الوطن و أمله المرتجى ، فهم كل ما كان يملك ، فلا بترول لدينا و لا معادن نفيسة و لا حتى سياحة بالمعنى السليم لعلم اقتصاد السياحة ، كل ما لدينا كان ثروة مصر من شبابها ، فإذا بهم يسمرون الليالي حول العلم و الإيمان و الانقطاع في المساجد دون المختبرات ، تكاسلاً و ركوناً لما بيدهم من كمال مطلق ، و مع رؤيتهم كيف تجاوزهم الزمن و الواقع ، يلومون الزمن و يكفرون الواقع ، بينما الإحباط بداخل النفوس يجعلها مشوهة ممروره كارهه حاقدة ، فاقدة لأى أمل ممكن. لأن السعى و التفكير لن يأتي لنا بأى جديد زيادة على ما بأيدينا سماوياً كاملاً بذاته ، فلماذا يسعى شبابنا و لماذا ينتج دكاترتنا أى علم نافع؟

و بما أن الله يغفر الذنوب جميعاً إلا أن يشرك به ، فقد اتكل النصف الأخر من الشباب على عدم شركهم بالله ثم توكلوا على الله ، و أنغمسوا في كل الرذائل الممكنة ، للغياب عن الواقع بكل الوسائل مشروعة أو غير مشروعة. و تحول الشارع في البلاد الإسلامية إلى مملكة للشيطان بدلاً من الرحمن ، فالمسلم كما

يحرص على الصيام و أداء الصلاة في مواقيتها ، فإنه أيضاً و بدون الشعور بأي خلل أخلاقي أو ديني يرتشي و يهرب بأموال الناس أو بأموال البنوك و هي بدورها أموال الناس ، و يستولى على أراضي الدولة و يغش في منتجه ، و يخسر الميزان ، ويعتدي قولاً أو فعلاً على غير المسلمين ، و لا تأمن غير المحجبة من غير المسلمين على نفسها في شوارع تمتلئ بالمآذن المفترض أنها رمز عفة اليد و اللسان و الفعل، و تغطي فضاءها ميكروفونات تقصف الآذان بالوعظ و الأمر بالأخلاق. ثم يحج البيت كل سنة ليعود كما ولدته أمه ليرتكب آثاماً من نوع جديد ، حتى يحين موعد ولادته المتجددة كجلد الثعبان في السنة المقبلة.

هناك حديث يتفق الرواة على صحته ، وأراه أشد الأحاديث بطلاناً ، حتى أني اعتقد أن الانهيار الأخلاقي الواضح في شارعنا الملتحي و المحجب ، يعود إلى هذا الحديث بالذات ، رواه البخاري في كتاب الجنائز ، قال : " حدثنا موسى بن اسماعيل حدثنا بن ميمون حدثنا واصل الأحدب عن المعرور بن سويد عن أبي ذر رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله (ص) : "**أتاني آت من ربي فأخبرني – أو قال بشرني – أنه من قال من أمتى لا أشرك بالله شيئاً دخل الجنة ، قلت و إن زنى و إن سرق ؟ قال و إن زني و إن سرق ، قلت و إن زنى و إن سرق ، قال و إن زني و إن سرق ، قلت و إن زني و إن سرق ، قال و إن زنى و إن سرق** رغم أنف أبي ذر / الحديث ١٢٣٧".

لقد توافقت المجتمعات كلها ، و البشرية جميعاً ، والأديان وثنية أو سماوية أو وضعية ، على أن فعل السرقة و فعل الزنا (و نفهمه و تفهمه الدنيا كلها بأنه اعتداء اغتصابي بالإرغام) ، هي أفعال فاضحة و مشينة وضد أى أخلاق ، و هي شئون لا تحتاج توجيهاً و لا تعليماً كي ندركها ، لأنها تدرك بالحس الإنساني الخالص ، لذلك كان الحس الإنساني وراء تكرار أبي ذر لسؤاله المندهش المستنكر ثلاث مرات ، تعبيراً عن عدم قبول روحه لفكرة أن يكون مصير الزاني و السارق إلى الجنة بدلاً من جهنم لمجرد إعلانه الشهادة الإسلامية.

الغريب أن هذا الحديث يعتبر عمدة الأحاديث المكررة التي يعمل بها المسلمون و مشايخهم ، ثم يحدثوننا عن القيم و عن الأخلاق !!؟ ، و هم يبررون السرقة و الزني مقابل الإعتراف للإله بأنه إله !! ، بل و نسبة ذلك اللا أخلاق إلى النبي الذي لا ينطق عن الهوى و الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه ، فيكون الرب قد تغاضى عن قواعده الأخلاقية و غض البصر عن كسرها و أذاها لعبادة الآخرين ، مقابل أن يكسب مسلماً جديداً يعلن الاعتراف به إلهاً. فأى مصيبة وصل إليها المسلمون في

دينهم ؟ و أي حديث ينسبونه إلى المصطفى (ص) الذي وصفه ربي بأنه على خلق عظيم؟

لهذا يرى العلمانيون المؤمنون بالتواصل مع التراث أن القيم الوضعية الإنسانية التي تعارف الناس عليها ، و توافقوا بشأنها في مجتمع بعينه في زمن بذاته ، هي التي تكشف لنا القيم الإلهية و تشرحها و تفسرها ، لأن القيم الربانية جاءت مجملة بلا تفاصيل ، و لم يفصل الوحي بشأن تلك القيم حتى لا يلزم الناس بها دفعة واحدة ، فتكون تكليفاً يصعب على المكلفين تحمله و أدائه ، لذلك جعل تلك القيم مخفية مثل بقية فروع العلوم و القواعد المنهجية و غيرها من قوانين طبيعية ، مع تضمنها ممكنات جهوزية دائمة لكشوف جديدة ، وبالمقابل و حتى نستحق خلافته على الأرض ، منحنا العقل أمانة علينا أن نؤديها حتى نستحق هذه الخلافة ، بتفعيلها و تشغيلها للبحث عن مخفياته و ألطافه على قدر جهد كل مجتمع و كل جيل ، فما نعثر عليه نلزم به أنفسنا ، إضافة إلى ما نكشفه من أسرار علمه التى أودعها كوننا ، و تركها لنا نبحث فيها و ننقب ، إعمالاً للبصر و السمع و العقل ، و كله كان الإنسان عنه مسئولا.

ترانا عندما يسألنا ربنا عما فعلنا بأمانته فبماذا سنجيب صاحب المُلك الأوحد يوم ذاك؟ ألا يخجل المسلمون من ربهم الذي وصفهم تجميلاً لهم و تفخيماً بخير أمة أخرجت للناس؟! أعطانا ربنا أعظم أمانة ، عقلنا الذي هو بضعه من عقله ، لأن وظيفته هي التفكير ، و لأنه هو ما اصطلحت الأديان على تسميته بالروح ، فهي المدركة ، الروح هي وظيفة المخ ، هي العقل. و بها نستطيع أن نكتشف القيم و أسرار العلم ، و نقوم باستثمار ما كشفناه و استغلاله لصالح الناس في أي مكان ، و من ثم يكون أمام الأجيال آمالاً واسعة في الاجتهاد و السعي و الحياة ، أما لو صدقنا جماعة **قرضاوي و زغلول و النجار و مصطفى محمود** و غيرهم ، و أن الله منحنا كل القيم و كل العلوم دفعة واحدة ، فلن يكون هناك أى معنى لإعمال ما أعطانا الله من أدوات معرفية سمعاً و بصراً و لمساً و شماً و إدراكاً و تعقلاً و فهماً و تدليلاً و اكتشافاً و اختراعاً ، ثم أن القيم كي تكون قيماً يجب أن تخضع للفرز و التجنيب و التمييز ثم الاختيار بالمفاضلة بينها ، حتى تختار هذه القيمة أو غيرها ، أما الفروض الدينية فهي ما لا يدخل تحت مفهوم القيم ، خاصة أن القيم المفروضة لا تنتج إنساناً سوياً. فقط الملائكة هم من يملكون نمطاً سلوكياً دون اختيار، و هو ليس قيمة ، يصلون لربهم ليل نهار سجداً و ركوعا. لأن الملائكة لم تعط الاختيار و نحن لسنا بملائكة. و هكذا خلقنا ربنا كي نختار لنتحمل مسئولية اختيارنا كي تتم مشيئته ، و هنا تظهر القيمة .

ان الاكتمال هو منطق و فلسفة ضد صيروورة الحياة و حركة التاريخ ، ان الاعتقاد بالاكتمال يعنى أن هزيمة المسلمين التاريخية قد اكتملت حتى ملكت الأرواح و العقول فاستكانت لمصيرها ، و أصابتها الشيخوخة في مفاصلها العقلية و الحسية ، فدخلت طور الخرف و الزهايمر ، يطلب علماء دينها الموقرون العلاج ببول الرسول و بول الإبل و الطب النبوي و العسل و الحجامة و الحبة السوداء ، و يشرعون رضاع الكبير و مفاخذة الرضيعة و هي العلامات الواضحات على وجوب الإسراع بإدخال الأمة إلى غرفة العناية المركزة ، أو انتظار ثواب الآخرة. أو البحث عن علاج من نوع جديد حتى لو كان مراً علقما ، فالمسألة أصبحت مسألة الإستمرار في الوجود ، أو الخروج منه غير مأسوف علينا.

إن ستر الله علومه و قيمه عنا ، حكمة ربانية تليق بكماله ، فهو الكمال الأوحد في ذاته وحده لا شريك له و لا قرين و لا شبيه ، حكمتها دفع كل جيل ليجتهد و يكشف جزءاً من علم الله و قيمه ، تاركاً للأجيال التالية مساحات واسعة لتضيف بكشوفها من علم الله معارف أرقى. و من المستحيل أن يكون الله ضد قانونه الأساسي في الكون ، قانون التغير و التطور الدائب ، الذي هو القانون الأوحد الثابت دون أى قانون آخر ، فكل قانون إلى تبدل و تغير عدا التطور و التغير الذي هو القانون الأزلي الأبدي أبداً مطلقاً لتحقيق الإرادة الإلهية على الأرض و كي يستحق الإنسان الخلافة فيها عندما يراعي هذا القانون الرباني.

موجز الأمر من وجهة النظر العلمانية التي تحترم التراث و تتفاعل معه ، أن أى فلسفة هي بحاجة لعقل يجادلها و يسألها و ينقدها و يفرزها ، و يرد عليها و يستبعد منها و يستبقي و يعلي و يخفض و يستخدم معاييره وفق قوانين العقل الصارم ، البارد ، و هي القوانين الموزعة بعدالة تامة بين الناس كما قال لنا فيلسوف الشك و العقلانية (ديكارت).

لهذا تتجدد الفلسفة غير المحروسة بالكهنة ، غير المجمدة ، غير المقيدة ، و تتطور و تؤدي لتطور مناهج العقل نفسه في الفرز و التمييز و الاختيار ، تؤدي إلى تطور منطق العقل فتظهر نظريات و فلسفات جديدة. بينما وجهة نظر فقهاء الإسلام في بلادنا هي وجهة نظر مقدسة ، فإن كانت حديثاً نبوياً و لو موضوعاً فهو مقدس لا يصح نقده و التعدي عليه ، لاحتمال و لو ضئيل أن تكون نسبته للنبي صحيحة. و إن كانت اجتهاداً تحول المجتهد إلى مقدس كالإمام أبو حامد **الغزالى** (حجة الإسلام) و ألد أعداء الفلسفة و العمل العقلي ، بينما لم ينل لا **الشاطبي** و لا **الجويني** و لا **الطوفي** مثل هذا اللقب ، و إن كانت سعياً وراء جمع المقدس تقدس الجامع ، كما في تقديس البخاري و اعتبار الفقهاء كتابه أصح كتاب على الأرض بعد القرآن. و

من هذه القداسة تمكنوا من استثمار المقدس الرباني و استخدامه بانتهازية مفرطة ، و أصبحوا هم من يفسر الحديث المقدس ليفسروا به القرآن المقدس، فأصبحوا هم معيار قياس الأشياء جميعاً ، و ليس القرآن ، لأنهم يعلمون أن أحكام القرآن نفسها لا تصلح معياراً لعموميتها و عدم تفصيلها ، و أنها تحتاج للشارح المفسر طوال الوقت ، فأصبح الرأى بديلاً لدين الله ، و كتاب الله ، هذا ناهيك عما يترتب على هذه المعايير المقدسة من الغاء العمل العقلي و القضاء عليه مبرماً ، لأن القياس المنطقي سيتم قياساً على ما قال الرب أو قال النبي ، أو ما قال الصحابة ، أو ما قال الفقهاء.

إن اللجوء للمقدس هو نوع من الحصول على الحصانة مصحوبة بالأمر الفوري بالالتزام و التقيد و التنفيذ لأن الآمر سيكون الله بنفسه ، هذا بينما كلام الله الذي يقولون أنه المعيار ، هم من يقولون أيضاً أنه بحاجة إليهم لتفسيره ، فهو لا يكتمل إلا بهم ، و من ثم يتقدس المفسر لقدسية ما يفسره. البخاري مثلاً أصبح مقدساً لأنه فسر القرآن بالحديث. أصبح الفقيه كما رأيتم عند قرضاوي هو من يعلن الرضى أو النفى و الطرد و التكفير الديني و التخوين الوطنى ، هو من يعطي كلامنا تصريحاً بالمرور من عدمه. هو من يعطي أى كلام الـ (O.K) ، مولاهم واخدها مقاولة حفر و ردم لوحده.

و مع هذا الحديث حديث آخر يحرض على الرذيلة تحريضاً ، يقول " إذا بليتم فاستتروا " ، فمن أراد ارتكاب الجريمة عليه فقط ألا يعلنها على ملأ حتى لا تفشو الرذيلة في المجتمع ، حسب تفسير فقهنا لهذا الحديث ، أى حتى لا يعتاد الناس الرذيلة لتكرارها العلني ، و حفاظاً على الشكل الفاضل دون المحتوى الفاسد ، يعنى سلامة المجتمع نتأتى بستر المؤمنين لبعضهم بعضا ، **"من ستر مسلماً في الدنيا ستره الله في الآخرة"** ، ليس المهم هو الفعل الأخلاقي من عدمه ، المهم الشكل العام للمجتمع الذي يجب أن يتصف بكل الفضائل ليكون خير أمة أخرجت للناس. فكانت النتيجة تفشى الرذائل في نخاع المجتمع دون إعلانها ، إلا مع سيئ الحظ الذي قد ينكشف فيرجمه الجميع بأحجار ذنوبهم.

إن فلسفة الأخلاق القائمة على مبدأ "إذا بليتم فاستتروا"، هي فلسفة النمر و قاطع الطريق ، هي فلسفة لا علاقة لها بأى أخلاق ، و أربأ بسيدي المصطفى (ص) الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه ، أن يكون هذا قوله.

# ماذا جري لمصر؟

لم يسبق أن مرت بلاد المسلمين بمثل هذه الفترة التي تغطيها الفوضى الكاملة ، فمنذ الصحوة الإسلامية و الحرب الأفغانية ضد السوفيت ، و حتى أحداث ٢٠٠١ و ما بعدها و حتى اليوم ، حدثت تحولات انتكاسية عنيفة ، فدخلت البلاد الإسلامية في طور من الإضطراب و التخلف زيادة على تخلفها الأزلي ، و انتشار الأمراض الاجتماعية حتى وافت على غيبوبة ما قبل خروج الروح. مع هذا و رغم كل مظاهر الانحطاط التام فإن دعاة الفكرة القومية العنصرية ، و دعاة الفكرة الإسلامية الطائفية ، يؤكدون على هذا التوصيف لحالنا ، فإنهم في الوقت نفسه و شعوبهم في حالة كبوة هائلة ، يروجون إن ما يحدث في بلادنا هذه الأيام هو انتصارات لأمة الإسلام و للأمة العربية ، و أن هناك نكسات بسيطة هي إلى زوال ، و تتمثل تحديداً في دويلة الكيان الصهيوني المغروسة وسط الأمة لتمزيقها ، و حليفتها الكبرى الخاضعة للوبي الصهيوني ، الولايات المتحدة الأمريكية ، وعداً ذلك كان من الممكن أن يكون المسلمون سادة الكوكب الأرضي ، و أن أى مصائب تلحقنا فهي ليست من عند أنفسنا ، إنما هي من عند الغرب الكافراللئيم الشريرالذي يبيت ساهر الجفون يدبر لنا المكائد و المؤامرات ، دون كافة الملل و النحل في المسكونة.

المصيبة أن هذين الفريقين (دعاة الفكرة القومية و دعاة الفكرة الإسلامية) هم من يشكلون اليوم المعارضة الواضحة في الشارع للأنظمة الحاكمة القائمة ، و هم على اتفاق مع الأنظمة بشكل مدهش و محير ، على تحويل أنظار المسلمين عما يجري لهم نحو ما يجري في بيوت الآخرين في إسرائيل و أمريكا و بقية دول الغرب. و تمكن كلاهما عبر أجهزة تشكيل الرأي العام من صحف و مذياع و تلفاز و مدرسة و مسجد و كنيسة و حسينية من تحويل المجتمع إلى حالة هوس ديني لا نظير له و لا شبيه.

تراه يتظاهر بوحشية كاسرة ضد أمريكا و إسرائيل ، و بأشد ضراوة ضد كنيسة وطنية في الحارة المجاورة لأنها تجرأت على ترميم دورة مياه فيها دون إذن المسلمين ، و يعتدي بالسب و التبخيس على البهائيين ، و لا يرى أبداً حاله و مرضه الداخلى بالمرة ، فنبدو بلهاء بشدة عندما نتظاهر بغضب عارم ضد الرسوم الدانماركية المسيئة للرسول (ص) ، بينما المسجد المجاور و التلفاز و الإذاعة تكفر المسيحيين علناً في (بلادنا) بلادهم و على أرضهم آناء الليل و أطراف النهار، فنبدو كالأباء الذين ينتقدون أولاد غيرهم المشاغبين طوال الوقت ، لكننا سريعي الغضب ممن ينتقدون أولادنا المشاغبين ، و هو ما يعطي الحكومات الاستبدادية مبرراً لطلب النصرة من هذا الغرب الديموقراطي المفترض أنه ضد الاستبداد ، و مبررها

هو أن بديل تلك الحكومات التي تدعي الاعتدال و تمارس بعض ألعاب شبه ديموقراطية ، بديلها هو هذا الشارع المتوحش المتعطش للدماء الكاره لإسرائيل و كل دول الغرب ، بل و ربما كل دول العالم غير المسلمة. حتى أصبح من بدهيات الواقع أن تجد الاستبداد واضحاً و قائماً ، و أن تجد الحقوق الإنسانية في حالة غياب تام ، حيثما تجد أغاني الهجاء لإسرائيل و أمريكا و الغرب كثيرة الترداد وحشية النبرة ، متكررة ، عالية الصوت.

لقد أمكن للأنظمة الحاكمة في الدول الإسلامية بامتلاك وسائل التأثير في الناس ، أن تقوم ببرمجة شعوبها بألوان من الأفلام و الحوارات و برامج الشو و الدراما ، التي تدلك غرائز العزة و مكامن القوة المفقودة ، فتعاد و تكرر مسلسلات أبطال العرب المسلمين ، و سيرتهم العطرة في غزو البلاد و احتلالها ، تعظيماً لمجد الماضي الإسلامي ، و أنه بالإسلام وحده يمكن استعادة هذا الذي ضاع ، لا وجود في رؤيتها للمواطن و حقوقه أو حتى للوطن ، لأن تلك الأمجاد التاريخية كلها كانت على أشلاء و كرامة و إنسانية المواطن ، لأن الهم الشاغل كان و مازال ، هو الأمة الإسلامية و ليس المواطن فما أكثر المواطنين ، و هم كالعدد في الليمون و الحمد لله. يمكن أن يكونوا وقوداً لمجد الأمة و سلاطينها و رجال دينها و صراعاتهم علي الفريسة عند الحاجة. و لأن الاستبداد واحد سواء كان دينياً أو قومياً ثورياً عسكرياً أو ملكياً أو جمهورياً ، فقد توافق الفقيه و السلطان و المعارضة القومية و الإسلامية كلهم معاً على تقديس ذات الأمة التي هي قدس أقداس القبيلة المسلمة ، دون مكونها الحقيقي (الإنسان المواطن الفرد).

و تعرض وسائل إعلامنا نماذج تكاد تجعل من شخوص التاريخ الإسلامي كيانات قدسية ، لا تفعل إلا من أجل خير و دفعاً لشر ، بنبل و مروءة غير موجودة سوى في السيناريو المقدم للناس ، بينما التاريخ الإسلامي نفسه في واقعه و في مراجعة الأمهات يقول شيئاً آخر مختلف بالمرة .

فتاريخ المسلمين كله هو تاريخ فتن و صراع على الجاه و السلطان منذ فجر عصرنا الذهبي منذ الخلفاء الراشدين الهداة المهديين الذين ماتوا صرعي القتل رغم حرصهم على الشرع الذي لم يؤدى لأمن الجتمع ولم يحفظ لرأس الحكم أمنة وحياتة ، فانتهت حياتهم قتلا ، إلى الثورة على عثمان ، ثم واقعة الجمل سنة ٣٦ هـ ، ثم صفين ٣٧ هـ ، ثم مذبحة آل البيت في ٦١ هـ ، ثم غزو جيش يزيد سنة ٦٣ هـ لمدينة رسول الله ، فقتل من قتل و سبى من سبى و حبلت ألف عذراء من هتك العرض العلني ، و هن بنات الصحابة و في حضرة المسجد النبوي و جسد صاحبه الشريف في ثراه ، ثم فتنة المختار الثقفي و ابن الزبير في ٧٣ هـ ، ثم ضرب

الحجاج بن يوسف الثقفي و جيشه مكة و الكعبة بالمنجنيق. . و من يومها لم تتوقف الفتن و الملاحم و المحن ، و حتى سقوط الخلافة العثمانية ، و لو دققنا في التفاصيل لما كفتنا ألوف الصفحات التي لم تسجل سوى القتل صبراً و الظلم قهراً تحت رايات كلها تعلن إسلامها التام و الكامل. .. إلخ و كفر غيرها.

ثم اشتبكت الأدوار في بلادنا بعد الصحوة العنترية بين المسجد و المدرسة و الجامعة ، و لم تعد المدرسة مهمتها تعليم العلم الإنساني بل تعليم الإيمان ، تتدارس فضيلة النقاب مقارنة بفضيلة الحجاب ، و تتباحث في شئون الفرج و الطهارة و الطمث و المواريث. مع اسراف في تقديس ما لا يصح تقدسيه ، و الدفاع عن الموروث الإسلامي بل إحتسابه الكمال ذاته ، و النظر إلى التاريخ الإسلامي بعين الرضا الكامل ، بل و تمنى بلوغ ما بلغته الأمة خلال هذا التاريخ الذهبي ، حتى يتقدس التاريخ الإسلامي و يصبح محل المثل الأعلى لكل التأريخ ، مما يخرج كل ما له علاقة بالإسلام سيرة أو تاريخاً أو فقهاً خارج أى محاولة درس نقدي حقيقي ، فتخفى المعايب و تستفحل النقائص ، بينما هذا التراث المعيوب قد أصبح المرجعية التأسيسية لمثقفى المسلمين ، بل يكاد يكون وحده مطلقا المرجعية لكل شئ و كل شأن. و في مناخ كهذا يكون الأقتراب من هذا الماضي بأى رؤية نقدية تلتزم شروط المنهج العلمي هو اعتداء على ثوابت الأمة ، بينما يتم النفخ في الذات المعنوية للأمة حتى يجعلونها المُنجز الأول لأى حضاره على كوكب الأرض ، و أن ما نراه من تحضر و رقى في البلدان الحرة هو منقول عنا ، و ما كان يتحقق لولانا ، أو بالأحرى لولا هؤلاء الأسلاف التراثيين. بينما يتم تقليص التاريخ الوطني ما قبل الغزو العربي الاستيطاني لهذه البلدان حتى يكاد يختفى من التاريخ ، فتضيع جذور الوطن و تلتبس الهوية : هل نحن مصريون أم عرب أم مسلمون ، هل نحن أمة مصرية أم عربية أم أمة إسلامية ؟

و هكذا تتم برمجة الشعوب الإسلامية بحيث يتجه عداؤهم نحو عدو متفق عليه هو الذي تسبب في فقدنا ماضينا الذهبي ، فيكون الخطأ الكارثي في وجهتنا و في اختيارنا للتوقيت ، فالوجهة يجب أن تبدأ بتوجيه العيون و الآذان و العقول كلها صوب الداخل أولاً و ليس الخارج ، و قبل فلسطين و العراق و البوسنة و الشيشان ، بل و قبل الكعبة و المسجد الحرام و المسجد الأقصى ، لأنه بحالنا هذا لن نضيف للكعبة و فلسطين و المسجد الأقصى سوى المزيد من النكبات و الخسائر ، بعكس أن نبدأ مشوارنا الاستيراتيجي بخطوات تكتكية تبدأ بنقد الذات و تقويتها حتى يمكنها أن تتخذ في المستقبل ما يناسب واقع الزمن من قرارات صوابية. و سواء كانت همومنا القومية و الإسلامية التي تشغلنا اليوم ، موجودة في حسابات الزمن الآتي أم لم تكن.

و مع الغضب العارم و الشعور بالقهر و الدونية ، يرفض المسلمون أن يشكوا في ذاتهم بالمرة ، و لا أن يراجعوا مناهجهم و طرائقهم في التفكير و في أسلوب الحياة ، و يلقون بشكوكهم على الواقع الموجود يخرق العيون و يبهر العقول في بلاد أقامت الفراديس على أرضها ، و يكون الملوم هو الاستعمار و أذنابه من حكام تابعين أو كما يزعمون. إن المسلمين يقرأون الواقع بعد تمريره على ذائقتهم ، و فلترته حسب اختيارتهم و أخيلتهم و تصوراتهم و أوهامهم ، لا كما هو على الأرض ، رغم ما أثبتته كل النعرات و التجارب الثورية إسلامية أو عربية على الأرض عبر تاريخها القديم و الحديث من مظالم و استبداد لحق بعباد الله المسلمين ، دون الكفار في بلاد الغرب الحر الذي يعيشون فردوس الحريات على الأرض ، و ارتكبت مجازر و شنت حروب و انهارت بلاد و سقطت حدود ، و انحسرت قوميات و صعدت أخرى على أشلائها ، في حروب إبادة صفرية متتالية.

**نحن مع الأسف نريد إعادة صياغة الدنيا كما نحب نحن ، لا كما هي عليه في واقع الحقيقة.** المصيبة أن هؤلاء أنفسهم من يتصورون أن بيدهم كل الحلول السحرية لمشاكلنا فقاموا يدلون بدلوهم في عملية الإصلاح ، ليصوغوا لنا الآتي كما الماضي. بعد مضى أكثر من أربعة عشر قرناً ، جاءوا يعلنون لنا أنهم مصلحون و أنهم سيصلحون ؟ أنظر قارئي (و أنا و أنت من مساكين هذه الأمة) ماذا جنى علينا أصحاب الرؤي الطائفية أو القومية؟ ثم لماذا مادام بيدهم الحلول السليمة التامة لم يصلحوا منذ قرون متطاوله ، رزح فيها المسلمون تحت أنظمة حكم اصطلح علم فلسفة التاريخ في العالم كله على تسميتها بمنظومة الاستبداد الشرقي ، التي امتدت بطول العالم الإسلامي من الشرق الأوسط و حتى الصين. لماذا لم يصلحوا بما لديهم من وسائل و أدوات إصلاح لا تبلي و لا تفني ؟ و كانوا أراحوا تاريخنا مما أثقل ضميره من فتن و نوازل هائلة كماً و كيفاً ، و لأدى بدلاً عن ذلك لتقدم هائل مبكر عن كل الدنيا ، و كنا سبقنا به العالمين منذ قرون ، بدلاً من وضعنا المزري على جدول سلم الأمم اليوم ، و هو العار بعينه و ذاته.

إن إجابة سؤال الدكتور **رفعت السعيد** المتكرر : "ماذا جرى لمصر"؟ هي في جانب منها هام مسألة تكوينية بنيوية تكمن في بنية تكوين الأمة و بنية تفكيرها ، فقد تمكنت مصر زمن محمد على و من خلفه من بعده طيب الذكر **الخديوي اسماعيل** ، من الخطو نحو الدولة الحديثة المدنية بخطو واثق عبقري ، حتى أصبحت في سنوات قليلة تجربة رائدة ، و مدرسة يأتيها زوار شرق آسيا للتعلم من التجربة ، و زوار شرق آسيا هم الذين أصبحوا اليوم في المقدمة ، بينما أصبحت مصر و معها عربها يشكلون دملاً مؤرقاً في مؤخرة الأمم ، و العامل الجوهري هنا هو مجموعة صدف نادرة و متوالية خلال حقبة زمنية قصيرة لا تتجاوز النصف قرن ، تمثلت

إحداها في ظهور النفط في البلاد العربية ، مما أدى إلى تغير بنيوي مواز هائل ، و حوالى ذات الوقت كانت الحركات العسكرية الإنقلابية قد عمت معظم العالم الإسلامي ، لتفرض حكومات وطنية لكنها فاشية بامتياز ، ألغت من العقول و الضمائر فكرة قبول التعددية المفرطة المتسامحة ، لصالح التعصب للفكرة الواحدة و الزعيم الأوحد و المذهب الأوحد ، مما يسر السبيل بشدة لما عرف بعد ذلك بالصحوة الإسلامية ، و التي عمدت وجودها في مصر بمقتل الشيخ الذهبي ثم التضحية لعيد النصر بذبح الرجل الذي ترك لهم مصر سداحاً مداحاً فقتلوه يوم احتفاله بنصره الأكتوبري الملحمي حقاً و صدقاً.

و تمكن البترودولار من إعادة غزو مصر و بقية دول الإمبراطورية الإسلامية السابقة ، بإسلام صحراوي دخلته عادات و تقاليد و أنظمة و مفاهيم عرب قبائل الجزيرة ، بزيادات توازي تراكم أربعة عشر قرناً من الزمان. ليترافق المد البترودولاري بالحرب ضد الروس في أفغانستان ، ثم انتصار الحلف الغربي العربي الأفغاني و انسحاب الروس من أفغانستان ، مما اعتبر في حينها علامة سماوية على صحة المنطلقات و الأهداف ، و وجوب السير في الخطة لأسقاط كل الحكومات الطاغوتية في العالم ، و ما تلي ذلك من تفكك المنظومة السوفيتية كلها. مع ثورة إسلامية في إيران حققت انتصاراً عجائبياً في أيام ، و فشلت حملة أمريكا العسكرية لإنقاذ رهائنها في إيران في صدفة عجائبية أخرى (و لكل بالطبع عوامله الموضوعية الواضحة لكننا لا نرى سوى العجائب) ، مع أموال هائلة لم تخف وكالة المخابرات الأمريكية أنها دعمت بها مئات المؤتمرات للصحوة الإسلامية ، إبان حقبة الحرب البادرة تجييشاً المسلمين ضد الكفر الشيوعي ليحاربوا عن الغرب بالنيابة.

كان الإسلام في مصر بعد أن فتحها الغزو العربي (بمرور الوقت) قد تمصر ، و مع قيام الدولة الحديثة على يد **محمد على** أخذ صبغة تسامحية هائلة ، فكنت تجد الجميع متعايشاً ، محبو أهل البيت إلى جوار المتصوفة ، إلى جوار عباد الأضرحة من البسطاء ، إلى جوار أهل السنة ، إلى جوار الأقباط ، إلى جوار اليهود ، إلى جوار ملل و نحل و أعراق متعددة وجدت في مصر جاذباً للهجرة إليها و اكتساب جنسيتها ، هرباً من مواطن فقيرة أو استبدادية ، و انتهى كل هذا بداية من طرد أصحاب الأصول غير المصرية مع اليهود في الزمن الناصري ، مما سلب عن تلك الأنظمة صفة العلمانية الليبرالية و منحها صفة الديكتاتورية الفاشية بامتياز ، رغم ما رفعته الأنظمة القومية الثورية من أيديولوجية تحارب الإسلام السياسي و تقوم على قيم وحدوية و اشتراكية ، لكن هزيمة هذا المشروع المروعة خاصة في ١٩٦٧ ، و سقوطه اقتصادياً و فشله التام في تحقيق أياً من أهدافه المعلنة ، فلم

يحقق لا عدل اجتماعي و لا مساواة و لا تنمية ، و لا هو ترك البلاد على حالها الأول تسير مسيرها الطبيعي دون قفز على المراحل. بينما انكمش دور العلمانيين الحقيقيين ، خاصة بعدما تراجعوا في النهاية إلى جماعة نخبوية ، و تابع بعضهم السلطة العسكرية و نافح عنها ، و ظل البعض الآخر متهماً بالعمالة للغرب طالما لم يؤيد النظام الحاكم. و من ثم كان يسيراً أن يصب هذا كله من بعد تتالى الهزائم و النكسات ، بيد الحركة الجديدة التي لبست هذه المرة زي سدانة الدين و الدنيا معاً ، و مع صحوة ملتبسة بإسلام صحراوي وهابي جاف قاس ، و هو ما لا تعرفه بلاد الخصب و الوفرة في الوديان الخضراء ، تم غزو البداوة لبلاد الخصب مرة أخرى ، بمنهج بدوي لا يسمح بأي سؤال أو رأي ممكن ، طوارئ عسكرية و أمنية و اقتصادية ، لأن القبيلة في موطنها بالبوادي هي في حالة طوارئ دائمة لا تعرف السلم و لا الاستقرار ، هي في سعي وراء خير الطبيعة الشحيح ، و عنده يتقاتلون قتالاً صفرياً ينتهي بسيادة أحدهما و استيلائه على ما بيد خصمه ، و ما بقي من بشر يستعبدهم أو يعسكرهم في قبيلته. لذلك لم تسمح هذه الحركة للقبيلة بغير نظام الحكم الاستبدادي ، لأنه الذي يضمن تماسك القبيلة بصرامه ، في بيئة متوحشة و قاسية ، كذلك لم يسمح لها هذا الارتحال الدائم بأي استقرار ، و من ثم لم يسمح لها بأي إنجاز ممكن.

إلى هذا النهج الصحراوي ارتكس المصريون مع إعادة فتح مصر وهابياً هذه المرة ، و ارتدوا إلى ما قبل زمن مينا موحد القطرين ، لأن المصريين كانوا بدواً رحلاً ذات يوم ، قبل أن تتوحد القبائل و تشكل مئات الأقاليم ، و عبر السنين و الدهور بألوف السنين توحدت هذه الأقاليم العديدة سلماً أو حرب حتى أصبحت إقليمين عظيمين بعد حوالي سبعة آلاف سنة من الإستقرار في الوادي ، حتى جاء **مينا** ملك الإقليم الجنوبي ليضم الإقليم الشمالى ليقيم أول دولة إمبراطورية قوية قائمة بحدودها التاريخية كما هي حتى اليوم ، و قد قام مينا بهذا التوحيد منذ حوالي سبعة آلاف عام مضت ، لكن بفضل الغزوة الوهابية يكون المصريون قد عادوا إلى ما قبل أربعة عشر ألف عام إلى الوراء من تاريخهم في بلادهم ، عاد المصري قبلياً بدويا لا فلاحاً يرتبط بالأرض منتجاً مبهجاً ، و أصبح يعرف نفسه بأنه ابن الحتة و ابن القبيلة و ابن الناحية ، يترك أرضة ويرتحل لأن أرض اللة واسعة فيهاجر فيها ، منطق بدوى كان هو عيبة العار ذاتها ونفسة ، ترددها الملحمة الشعبية (عواد باع أرضة ياولاد *** شوفوا طولة وعرضة ياولاد)، و هي كلها مستجدات على دولتنا الحديثة لم تعرفها مصر القرن العشرين ، ولا قبل العشرين.

أصبح كل مواطن قبيلة وحده ، لا يشغله ما يحدث على الأرض في بلاده ، فالقبيلة لا تعرف شيئاً اسمه (بلاده) ، لا يشغله سوى نفسه و مصالحه فقط ، مما أدى لما

نراه في الشارع من تفشي كل الأوبئة الاجتماعية العلنية رشوة و فساداً يمارس في بلادنا كاعتياد هو الأصل في الأخلاق و ليس الاستثناء ، حتى أصبح الباطل و الكذب و الخداع و السرقة هي العملة المتفق عليها ، هي القاعدة ، أما الشرف و عفة اليد و سلامة الضمير ، فهي عملة جيدة نعم لكنها الاستثناء ، لإنها مؤرقة و مزعجة ، في وطن يتهاوى يعمل فيه كل مواطن بالمثل الشعبي : " إن وقع بيت أبوك إلحق خدلك منه قالب".

إن هذا الانهيار المفزع ليس إلا نتيجة طبيعية للعودة إلى نظام القبيلة البدائي ، و التعصب للعنصر و القبيلة و الدين و المذهب و الأيديولوجيا ، بينما ضاع الجامع الشامل لكل هذه الألوان و الأطياف مللاً و نحلاً و عناصر و أعراق ، جامعنا المقدس الحقيقي الذي يحوينا جميعاً و يقبل بنا جميعاً في محرابه على التساوي بذات القدر و القيمة هو ماضاع منا.. . ، ضاع الوطن. . .ضاع طين الأرض بعدما هجرها الفلاح إلى المدينة أوإلى بلاد ابن عبد الوهاب ، وضاع عندما فقدت الأرض الطهور قدسيتها فقمنا نبني على ثراها الممتلىء خيرا وطهرا حجرا واسمنتا شائها قبيحا .... ضاعت المواطنة الجامعة ..

**فإلى اللة وإلى الوطن أشكوكم يا أهلى وناسى حكاماً و محكومين ، ويالوعة كبدى عليك ياوطن.**

# هل غير المسلم غير ذي خلق بالضرورة؟

**قبل أن تقرأ الموضوع :**

بعد نشر الحلقات السابقة من هذه السلسلة نعتني أحدهم بالقمام الذي لا يجمع سوى قمامة التاريخ ، و القمام بالبلدي الفصيح هو (الزبال) ، معبراً بذلك عن كوني جامع قمامة ، و جمع القمامة في التراث العربي الأبي التليد هي مهنة حقيرة و محتقرة أراد الكاتب تحقيري بها ، لأن العربي أصلاً يأنف العمل اليدوي كالزرع و الحصد و الصنع ، و يحتقر الإكاره (الفلاحة) ، فما بالك بمن ينظف له قمامته؟ المهم أنه بعد أن ينظف لهم القمام قمامتهم يحتقرونه ، بهذا المعنى قصدني الأخ المسلم ، دون أن يسأل نفسه من أين لي بهذه القمامة ؟ و ما هي هذه القمامة بالضبط التي أسقط عليها و أجمعها ؟ أليست قمامة ثقافتك يا أخي المسلم ؟ أم أني صانعها ؟ إني عندما أنظف عقلك أكون باحثاً محترماً لا يخجل من النبش في القمامة ، فالباحث كالطبيب ينظف الجروح من القيح و الوسخ و يطهرها من الأدران ، ثم يرقى فوق ذلك بكونه ينظف الدماغ مما فيه من قمامة ، و لنركز هنا إذن على القيم الأخلاقية التي هي الملكية الخاصة للمسلمين التي يباهون بها الأكوان بدلاً عن القمامة.

تعالي يا أخي المسلم نكشف معاً عن قمامة ثقافتك و مناهجك في التفكير ، حتى تعود سليماً معافى تشارك الدنيا بالعطاء و تنعم مع المنعمين فيها بالتقدم و السعادة و الرفاة و المعرفة و الرقي العلمي والأخلاقي ، عوضاً عن القتل والقتال.

**الموضوع :**

أعراض عصابية سيكوباتية شديدة الاستعصاء ، أصابت القيم الأخلاقية عند المسلمين في مقتل ، و هي لون من المسلمات التي لا دليل على صدقها في الواقع ، بل أن الواقع ينفيها و يكذبها ، مسلمة تقوم على ما يشبه الاعتقاد الديني ، و هو أن الإسلام تحديداً من بين كل أديان الأرض سماوية و أرضية هو المعبر الصحيح عن القيم الأخلاقية ، و أن غير المسلم هو بلا أخلاق بالضرورة ، فقط لكونه غير مسلم .

مشكلة المسلم مع القيم شديدة التعقيد ، فهو يقيم مناهجه القيمية على عقائد دينية ، و لأنه يعتقد أن عقيدته وحدها هي ما تملك تمام الأخلاق الذي يلازم تمامية المعرفة بالضرورة . لكن ذلك تحديداً هو ما يجعله يفترض بالضرورة أن غير المسلم لا يملك معرفة سليمة ، كذلك هو بالضرورة لا يملك أخلاقاً سوية حتمياً ، و كان سلب القيم الأخلاقية عن العدو و لازال سلاحاً فعالاً في الحرب النفسية و لتجييش من

يظنون أنفسهم الأبرار و الأطهار ضد الأشرار ، فيتم تنجيس و تبخيس الغير أولاً حتى يكون الضمير مرتاحاً عند قتل هذا الغيرفي عقيدة الجهاد ، يكون قد استحق مصيره و شن الحرب عليه و قتاله و قتله .

و لهذه الأسباب تحديداً ، و علي مثل هذه العقائد بالذات و بالتخصيص ، قامت حروب الفتن الإسلامية و حروب الفتوحات التي حصدت ملايين المسلمين و غير المسلمين (حوالي مليون و نصف إنسان خلال السنوات الأربع الأولى من الفتوح خارج الجزيرة في زمن كان المليون إنسان رقماً هائلاً بحسب تعداد المجتمعات حينذاك) ، لأن هذه الحروب قامت على اعتقاد بامتلاك المسلمين للحقيقة النهائية في فهم الدين و الدنيا ، ثم امتلاك كل طرف مسلم في حروب الفتن للحقيقة التامة ، و أنه وحده من يملك قيماً أخلاقية ، في مقابل اعتقاد الطرف الآخر لذات الاعتقاد في قيم أخرى مخالفة تقوم على فهم آخر للإسلام ، فكانت قيماً ذاتية تتأسس على الهوى و ليس لها في الواقع معياراً محدداً يثمنها بالإيجاب أو بالسلب ، من يحدد القيمة و يصنعها هو شخص صانعها و عادة ما يكون هو القوى المنتصر. هذا رغم أن العالم حينذاك كان قد اكتشف القيم الموضوعية (الإكسيولوجية) منذ فلاسفة اليونان قبل الإسلام بقرون و أزمان ، و تواضع الفلاسفة على ثلاث قيم مطلقة لا يختلف حولها اثنان لذلك هي موضوعية يفهمها الكل بكل وضوح ، و هي : الحق و الخير و الجمال . لكن الإسلام لم يظهر لا في أثينا و لا في روما ، و إنما في فيافي الحجاز ، و خاطب الناس في هذه البوادي القاسية بلسانهم و فهمهم و معارفهم و قيمهم و ليس بمعارف و قيم الأعاجم.

كانت القيم الذاتية في الجاهلية الأولي هي الشأن الطبيعي في ثقافة العربي ، لأنه لو طبق القيم الغيرية كالكرم و الإحسان لمات في بواديه جوعاً ، فكانت القبائل تتحرك في البوادي بحثاً عن خيرها الضنين ، فتتقاتل عليها قتالاً صفرياً لا توجد فيه موائد صلح و لا مبادرات سلام ، فيه قاتل يا مقتول ، فتقتل القبيلة من تقدر عليه من القبيلة المهزومة ، و تستولى على ما تملك جميعاً عيون الماء و السوائم و المتاع ، و تبقي من البشر على من يمكن الاستفادة منه فقط لأن له فم يأكل ، فيجب أن يكون لوجوده ضرورة ، و عدم وجوده أفضل . لذلك كانت العبودية عموداً من أعمدة المجتمع البدوي من فجر تاريخه ، بينما لم تعرف مصر مثلاً نظام العبودية طوال تاريخها إلا عندما دخلها البدو اليهود زمن النبي يوسف والهكسوس، و لم يرتق العرب إلى التواضع على قيم كالكرم و الوفاء بالوعد و الصدق في القول إلا مع الإستقرار المدني لمكة ، و التي تحولت إلى مركز تجاري ترانزيتي ، ثم أمسكت بعنان تجارة العالم إبان الحرب السبعونية بين إمبراطورتي الفرس و الروم ، و فرضت مصالح التجارة و ضرورة سيولتها و سلامتها التي تعود بالنفع على الجميع

، ضرورة توافق العرب على قيم النخوة و المروءة و الأمانة و النجدة و الإجارة و الكرم و الوفاء بالعهد ، و كان ذلك تحديداً إبان العصر الجاهلي الثاني منبع كل فضائل العرب ، و الذي انتهي بظهور الإسلام و العودة بالعرب إلى قيم الجاهلية الأولى حيث قيم الغزو و السلب و النهب و السبي و الحروب الصفرية .

و هو الأمر الذي تعبر عنه رواية ابن عبد ربه في عقده الفريد (ج ٥ ص ١٣٢) عن صحابة لرسول الله جلسوا يتذاكرون الجاهلية الأخيرة مقارنين بينها و بين زمن الصحابة ، " قيل لبعض أصحاب رسول الله (ص) : ما كنتم تتحدثون به إذا خلوتم في مجالسكم ؟ قالوا : كنا ننشد الشعر و نتحدث بأخبار جاهليتها . و قال بعضهم : وددت أن لنا مع إسلامنا كرم أخلاق آبائنا في الجاهلية ، ألا ترى عنترة الفوارس جاهلي لا دين له ، و الحسن بن هانئ مسلم له دين ، فمنع عنترة كرمه ما لم يمنع الحسن بن هانئ دينه ، فقال عنترة في ذلك :

و أغض طرفي إن بدت لي جارتي..... حتى يواري جارتي مأواها

فقال الحسن بن هانئ مع إسلامه :

كان الشباب مطية جهل.... و محسن الضحكات و الهزل

والباعثي والناس قد رقدوا.... حتى أتيت حليلة البعل

قامت حروب الفتن الإسلامية على اعتقاد كل فريق بصوابيته المطلقة ، فيخوض حرباً صفرية ضد الطرف الآخر ، وكانت الحرب الصفرية إبادة تامة بمعنى الكلمة ، و هو ما تمثل في إبادة بيوت بكاملها كما في أبشع مثال مخزي في تاريخنا إبادة آل بيت الرسول حتى قتلوا الأطفال الرضع ، ثقافة أكلت بيت مؤسسها ، و تمثلت أيضاً في حروب الفتوح حيث تمت إبادة ممالك بكاملها مثل مملكتي الغساسنة و المناذرة التي انتهت من الوجود في الجغرافيا و في التاريخ ، و كانت ممالك عربية ، لا فارسية ، و لا رومية.

حرب العربي إما كل شئ ، أو لا شئ ، من النهر إلى البحر و لو فني الجميع ، لأنه لا يري الآخر مطلقاً و لا حق لهذا الآخر في الحياة ، فهذه مفاهيم حديثة لم تكن قد وجدت في القرن السابع الميلادي بعد في مجتمعات البداوة ، التي لم تعرف لا قوانين روما و لا فلسفة الأخلاق اليونانية و لا ديمقراطية أثينا ، و لم توجد في بلادنا حتى اليوم لأننا لازلنا نعيش في القرن السابع الميلادي بعد ، بل و حولنا بلادنا إلى القبلية العنصرية الطائفية المتناحرة ، زيادة في الأخلاص حتى نعيش نفس المكان و نفس الزمان عند خير القرون . و بقيم ذلك الزمان ، و هي القيم التي

تحتاج إلى دراسة متأنية مستفيضة ، لأنها الموجه لسلوك المسلم اليوم و تصرفاته ، و تقف وراء تفكيره و أهدافه ، لبحث مدى تأثير هذه القيم إن إيجاباً أو سلباً ، في عملية الهدم و البناء الضرورية في عملية الإصلاح المرتقبة .

تعجب اليوم في العراق _ الذي عشقته كمصر و تيمت به و بأهلي و ناسي هناك _ إذ أخذه أهلي و ناسي (ليمزقوا نياط قلبي) إلى نفق الطائفية المظلم فعاثوا في عراقنا الفساد و سفكوا الدم البرئ ، في فتن جديدة تقوم على فتاوي جديدة ترى كل منها ذاتها الكمال كله وعداها الباطل كله ، عادوا قبائل متفرقة بحاجة إلى عقد اجتماعي جديد يصبحون بنعمته إخوانا .

مصر القديمة تحولت إلى بلد حضاري مستقر متماسك منذ ما يزيد عن سبعة آلاف عام ، و لم يكن فيها كعبة ، و لم تكن فيها قباب مقدسة لآل البيت ، و لم يكن فيها إسلام هو الحل ، و أيضاً لم تحدث فيها تلك الفتن بين أهلها و بعضهم ، لم تحدث في مصر حرب أهلية واحدة في أزمنتها القديمة. هنا الفارق الثقافي الذي تصنعه البيئة مع الإنسان جنباً إلى جنب ، ليبرز الفارق القيمي بين قيم الإستقرار و قيم التبدي. كذلك كان العراق ، فمن إسمه اشتق اللسان العربي معنى (العراقة) ، و مع الغزو الحقيقي التتري التكفيري للعراق ، آتيا من السعودية و مصر و إيران و سوريا و الجزائر و اليمن ، بعد سقوط الطاغية ، و كل بفتواه ، و كل قد حول الرأى إلى قول مقدس ، فتتقدست الفتوي إلى حد يباح فيها دم الذي لا يأخذ بها فهو من الكافرين ، إن سنة نبي الأمة كان فيها ما إن لم نأخذ به لم نأثم ، فجاءنا فقهاء آخر الزمان بفتاوي قاطعة الثبوت و الدلالة قاطعة الصحة و اليقين ، دون أن يشيروا إلى مصدر قدسيتهم التي تعلو على صاحب الوحي جبريل و على رسول الله (ص)؟! فتاوي تصل إلى قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، لأنهم يرون الحق كله معهم وحدهم.

ما الذي سيترسخ في ذهن الطفل الصغير عندما يتعلم و يحفظ الآيات القائلة :
**"أرأيت الذي يكذب بالدين؟! فذلك الذي يدع اليتيم ، و لا يحض على طعام مسكين** / ٣١ / الطاغوت" .

أن معني الدين في الإسلام هو الإسلام وحده ، و إن الذين لا يؤمنون بهذا الدين ، هم الجفاة القساة غلاظ النفوس ، أنهم يدّعون اليتيم ، بل و زيادة على هذه الخشونة في الضمير هم أشرار ، فهم لا يكتفون بدع اليتيم ، إنما لا يتداعون بينهم بالنصح و الإرشاد لإطعام المسكين . إن فهم هذه الآيات منزوعة من سياقها الزمكاني التاريخي و الموضوعي في أحداث الأرض زمن الدعوة ، هو فهم سطحي سريع ، و ليس في وقت المسلم اليوم أمام المكتبة الإسلامية الهائلة كماً و كيفاً ما يجعله

يبحث عن السياق و عن التاريخ ، هو في حاجة لمختصر مفيد بسيط ، يكرره الفقهاء و يصدقه العوام ، و هو أن غير المسلم بلا أخلاق و بلا إنسانية ، بل أنه من البديهيات لمن يعلن أنه مسلم ، أنه بالضرورة و بالتلازم القسرى صاحب قيم أخلاقية رفيعة ، ألا ترون **عبد المنعم أبو الفتوح** القطب الإخواني ذائع الصيت في حوار معه علي شبكة إسلام أون لاين ، يقول متسائلاً مستغرباً مندهشاً مستنكراً: "كيف يُتصوّر أن يكون هناك أخ مسلم يدعو الناس إلى الصدق و الأمانة ، ثم يكون في سلوكه و أعماله صورة سيئة ضد الصدق و الأمانة"**!؟**

و مثله الشيخ **قرضاوي** يحدثنا عن المجتمع المسلم فيقول: " و يقوم ذلك المجتمع على آداب و تقاليد خاصة ، تجعله نسيجاً وحده غير مقلد لغيره ممن بعد عنه زماناً أو بعد عنه مكاناً / ملامح المجتمع / مكتبة وهبة / ص ١٠٩ " . و في كتابه (الإخوان المسلمون / مكتبة وهبة ١٩٩٩) ، يقول الشيخ قرضاوي ناقلاً عن سيده حسن البنا ، واصفاً المجتمعات غير المسلمة : "من أهم الظواهر التي لازمت المدنية ، الإلحاد و الشك في الله و إنكار الروح و نسيان الجزاء الأخراوي ، و الإباحية و التهافت على اللذة و التفنن في الإستمتاع و إطلاق الغرائز ، و الإثرة في الأفراد فكل إنسان لا يريد إلا خير نفسه ، و الربا و الاعتراف بشرعيته و اعتباره قاعدة للتعامل ، و قد أنتجت هذه المظاهر المادية البحث في المجتمع الأوروبي فساد النفوس وضعف الأخلاق ، و التراخي في محاربة الجرائم فكثرت المشكلات و ظهرت المبادئ الهدامة ، و أثبتت المدنية الحديثة عجزها التام عن تأمين المجتمع الإنساني . . و فشلت في إسعاد الناس / ص ١٣٩ ، ١٤٠" ، و هو ما يكرره **قرضاوي** بعد ذلك كمسلمات في معظم كتبه ، فهو مثلا يقول في كتاب (ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده / مكتبة وهبة / ٢٠٠١): "إن المجتمع المسلم متميز عن سائر المجتمعات بمكوناته و خصائصه ، فهو مجتمع رباني إنساني أخلاقي متوازن ، و المسلمون مطالبون بإقامة هذا المجتمع حتى يمكنوا فيه لدينهم و يجسدوا فيه شخصيتهم ، و يحيوا في ظله حياة إسلامية متكاملة ، حياة توجهها العقيدة الإسلامية ، و تزكيها العبادات الإسلامية ، و تقودها المفاهيم و تحملها الآداب الإسلامية ، و تهيمن عليها القيم الإسلامية ، و تحميها التشريعات الإسلامية ، و توجه إقتصادها و فنونها و سياستها التعاليم الإسلامية / ص ٧".

أنظر حركات الشعوذة و أساليب الحواة الرخيصة و الثلاث ورقات ، إن الفقيه المسلم التقي الورع يسم غير المسلمين جميعاً بكل نقيصة أخلاقية يعددها واحدة فواحدة ، و ذلك كي تظهر الفروق بين المجتمع المسلم و المجتمع غير المسلم ، ثم يمنح المجتمع المسلم كل الصفات الإيجابية لأنه مجتمع رباني إنساني متوازن . . إلخ . . إلخ ، ثم تكتشف فجأة أن هذه المقارنة تتم بين واقع غير المسلمين ، و بين

المجتمع المسلم الذي يطالبنا الشيخ بإقامته ، فهو مجتمع غير قائم بالفعل ، مقارنة بين واقع أهل الغرب ، و بين وهم و حلم بمجتمع غير موجود بيننا. ناهيك عن عنوان الكتاب المخصص لبيان (ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده) ، الشيخ قرضاوي بعد مضي ألف و أربعمائة سنة و ربع القرن و نيافة عليه ، جاي النهاردة يبحث لنا عن ملامح المجتمع المسلم المزمع إيجاده إن شاء الله ، لأنه لازال في مرحلة التمنى ، فهو (الذي ننشده) ، فكم من القرون سننتظر يا ترى؟ هل هناك خلل فادح في أخلاق المسلمين كذباً على الذات أظهر من هذا و أجلي ؟ هذا الرجل من كبار أولى الأمر و لفتاواة أثرها الجليل الذي نراه اليوم في مجازر العراق و غيرها من بلاد المسلمين و غيرالمسلمين . فانظر إلى ما يعتور قوله المدهش دون أن يشعر هو و لا أتباعه بأي عوار و لا بأي دهشة!! ......... يا عينك . . يا جبايرك !!! . . هكذا تكلم الشيخ سيد درويش احد أعلام نهضة مصر المقبورة بفتاوي مشايخ آخر الزمان.

ثم يكرر **قرضاوي** عاطفاً مقارناً بين المجتمع غيرالمسلم و بين المجتمع المسلم الوهمي المتخيل ، فيعطينا وصفاً لهذا المجتمع المسلم ، حشده بطول كتابه و ما أطول كتبه من حيث المساحة ، سأحاول هنا العثور على ما أجمله فيها من عبارات بلسانه : " فهو مجتمع العدل و الإحسان و البر و الرحمة و الصدق و الأمانة و الصبر و الوفاء و الحياء و العفاف و العزة و النجدة و السخاء و الشجاعة و الإباء و الشرف و البذل و التضحية و المروءة و النجدة و النظافة و التجمل و القصد و الاعتدال و السماحة و الحلم و التضحية و التعاون و الغيرة على الحرمات و الاستعلاء عن الشهوات و الإيثار للغير و الإحسان للخلق كافة و بر الوالدين و صلة الأرحام و إكرام الجار ، و الإخلاص له و التوبة إليه و التوكل عليه . . مجتمع يحرم كل الرزائل و الأخلاق الرديئة فيجعلها في مرتبة الكبائر، فيجرم الخمر و الميسر و الزنى و الشذوذ الجنسي و يحرم عقوق الوالدين و إيذاء الآخرين باليد أو باللسان و يجعل من خصال النفاق الكذب و الخيانة و الغدر و إخلاف الوعود و الفجور في الخصومة / ص ٩٠ ، ٩١ " .

و هكذا حشد الشيخ كل ما تفتقت عنه قريحته من أحلام بدوية على قيم حداثية على فضائل متخيلة، للمجتمع المنشود و الذي سيقيمونه عندما يتمكنون في الأرض ، يمني به المسلمين أماني وأحلام بالمدينة الفاضلة التى لم تقم على الأرض يوما ، و يتفاخر به على قيم وأخلاق الكفرة العراة الفساق الفجرة؟! فخر بما لا يملك في الواقع بدليل أنه يتمناه و يرسم له الخطط ، فخر العربي الكاذب الفقير الجاهل القليل المريض العارى القائل :

نحن قوم إذا ولد الوليد فينا.... خرت له جباة الملوك ساجدينا

شاعر أخر عبر عن قيم العروبة في العداء الصفري بقوله :

نحن قوم لا توسط عندنا.... لنا الصدر دون العالمين أو القبر

فيعطيه الواقع القبر دون العالمين .

الأخ **أبو الفتوح** لا يتصور من أخ مسلم غير الصدق و الأمانه فقط لأنه أخ مسلم ، و لو كان يقصد الإخوان وحدهم فهو يصورهم لنا مجتمعاً من الملائكة الأطهار ، و هو بمقارنته بالواقع يظهر كلامه مجرد شعر فخر كاذب ، فلا هو تخر له جباة الجبابرة و الملوك ساجدين ، و لا هو حقيقة ، هو مجرد شعارات ترويجية ليس أكثر ، ألا ترونهم يعلنون تحريم الربا و يتحايلون عليه ألف حيلة في بنوك إسلامية هي ربوية بالكلية و إلا سقطت و إنهارت بين بورصات الأوراق العالمية . و يفعلون و هم يعلمون ، "ويل للذين يحرفون الكتاب بأيديهم و هم يعلمون" ، و يخادعون ربهم علناً عياناً بياناً ، فأى مرض عصبي و عقلي لحق بالضمير المسلم؟!

يتكلم قرضاوي و أبو الفتوح عن **الشرف** ، لكنهم لا يعلنون انتهاء العمل بأحكام آيات انتهى زمنها ، لا يعلنون انتهاء زمن هتك عرض غير المسلمين و السبي .

يتكلمون عن **الحريات** و يقيمون علم فقه كامل للعبودية يدرسه عيالنا في المدارس الدينية حتى اليوم .

يتكلمون عن **حقوق الإنسان** و هو مفهوم معاصر لم يكن في تاريخنا و لا تاريخ غيرنا في تلك الأزمان ، و في الوقت ذاته لا يعترفون بأي حقوق لغير المسلمين ، فهم كفار ، إنهم خارج الإنسانية ، فالإنسانية للمسلمين وحدهم .

يتحدثون **عن حق الأمن و السلام** و يرون أوطان غيرهم ديار حرب ، و من الشرع في أرفع الدرجات الاعتداء على غير المسلم و قتله و سلبه و نهب و سبي عياله و نسائه حسب عقيدة الولاء والبراء ، و الجهاد .

الشيخ المسلم و هو يكذب على نفسه و على المسلمين ، سواء داعية و مرجعية للجميع مثل **قرضاوي** ، أو كان عنصراً سياسياً حركياً مثل **أبي الفتوح** ، يتحول إلى نصاب من وجهة نظر القيم الأخلاقية ، أليس نصاباً من يعطي قيمة لشئ و يسلبها عن مثيلة ؟ أليس أفاقاً من يقف فوق رؤوس الأشهاد يعلن منحه القيم لهؤلاء و يسلبها عن هؤلاء ، بينما هو يمنح شيئاً ليس بيديه ليميز بهم بشراً لا يستحقون عن بشر يستحقون ، أترون إلى أين وصل الخبال بالعقل المسلم؟! إن من لا يملك يعطي

لمن لا يستحق ببساطة و خفة و على رؤوس الأشهاد جهاراً نهاراً ، بالكلام و البلاغة ، فنجرة بُق ، مجرد كلام لا أصل من واقع له . إن من يعلن نفسه مانح القيم أو صاحبها الأصلي هو نصاب أشر ، لأن القيمة الأخلاقية ليست ملكية خاصة لقوم دون قوم ، و ليس فيها عرب و عجم ، القيمة هي جزء أصيل في الموضوع أو في الواقع ، و تظهر إلى الوجود عندما يتم اكتشافها و تفعيلها في أى مكان أو زمان ، بينما المسلمون يمنحون أنفسهم القيم منحاً كريماً و سخياً إلى حد الإبتذال ، لإن العاطي في هذه الحال هو رب المسلمين الذي خص أمته وحدها بالخير دون بقية عيال الله في الأرض جميعاً ، و أعلنها خير أمة أخرجت للناس .

و هكذا هو ينفي القيم الأخلاقية الموجبة عن غير المسلمين جميعاً ، لذلك يتحدث عن حقوق الإنسان لكنه لا يعطي المرأة في بلادنا حقوقها كالذكر من باب العدالة ، لأن هذا الحق تحديداً ظهر عن الغربيين و هم بلا أخلاق لأنهم غير مسلمين ، و بهذه الطريقة ينفي الرقي عن قيم غير المسلمين لأنها عنده لا تخضع لمعيار الصواب و الخطأ و النفع و الضرر و الخيرية و الشرية ، إنما تخضع لمعيار الحلال و الحرام كمنظومة قيمية ربانية ثابتة لا تقبل تغيراً أو تطوراً . هنا سيكون الكلام عن حقوق الإنسان كحريته في اختيار معتقده ، أو حريته في نقد دين من الأديان كعمل بحثي أكاديمي ، أو نقده لبقاء فقه الرق حتى اليوم في معاهدنا الدينية ، سيكون ذلك كله فهماً غريباً في بلاد يعيش أهلها "حياة بهيمية" ، كما يصفهم كتاب التوحيد المقرر على أولى ثانوي بالسعودية المباركة. و مثله بالضبط سيكون الكلام عن الحرية هو قول كفري ضد الدين ، لأن الدين فيه فك رقبة ! فكيف سنفكها إن لم نفعل فقه الرقيق و نعمل به حين نعيد فتح البلاد لأنوارنا ؟ الخلل حادث نتيجة منح القيم لأنفسنا و سلبها غيرنا ، فلا نفهمهم و لا يفهموننا ، و نتحول إلى عالمين متباعدين في وقت تتوحد فيه الأرض كلها ، الخلل أن المسلم لا يدرك أن الحرية كقيمة أو أى قيمة أخرى لا علاقة لها بأى دين ، لأن القيم بما نفهمها من قيم اليوم الراقية لو كانت موجودة في أى دين لأمر بتحريم الرق فوراً و هو ما لم يفعله أى دين ، لأن هكذا كان منطق زمانه و نظم عصره .

و مازالت لنا وقفات ربما ستطول مع القيم الأخلاقية و المسلمين

# قيمة الوفاء بالعهد (أ. صحيفة المعاقل كنموذج أول)

ما قرأت عملاً حديثاً صادراً في مصر عن فلسفة القيم ، إلا و ابتدأ تصديره بالقيم الإسلامية السامية ، و هو ما يعني أن قيم الآخرين ليست كذلك.

و هو أمر متواتر حتى بين بين أهل الفلسفة و علمائها المتخصصين ، تجده يحيلك أولاً إلى قيم الإسلام بالضرورة ، ليعود بعد ذلك معلماً أكاديمياً يشرح القيم الإنسانية (الإكسيولوجية)، ناسياً أنه لم يعد هناك محل لبحث جديد ، بعدما أثبت للقيم الإسلامية وحدها في تصديره ، كل الإيجابيات التامة الجامعة المانعة.

تجدهم في علم الاجتماع قد صاروا كذلك ، في الفيزياء (سبحان الله) و صحة القوانين العلمية (بمشيئة الله) ، و الجغرافيا و الفلك ، وباء و انتشر ، كتب علم النفس تتصدر باحاتها آيات و أحاديث وردت فيها كلمة النفس عرضاً. حتى الطب لم ينج من ذات المصير ، يبدأ صاحب المرجع الطبي مرجعه بالآيات "إذا مرضت فهو يشفين" ، و نقابة أطباء مصر تضعها على (البادج / الأيقونة / الرمز) ، و في طب الحمية مرجعاً منتشراً تتصدر صفحته الأولى : "و كلوا و اشربوا و لا تسرفوا إن الله لا يحب المسرفين".

**و لا تفهم هنا قيمة بعد ذلك لصفحات المرجع الكبير ، مادام إذا مرضت فهو يشفين؟!**

أسلوب يذكرني بالحانوتية الذين يعملون بمهنة دفن الموتى ، و لافتتهم المشهورة : كل نفس ذائقة الموت! و لا أى معنى لتوقيع حكومات بلادنا على مواثيق دولية تؤسس لقيم جديدة اكتشفتها الإنسانية و توافقت عليها ، قيم لم يسبق أن وجدت لا في تراثنا الإسلامي و لا في أى دين من الأديان ، بل بعضها يتعارض بالكلية مع ما جاء في هذه الأديان ، كما في حال حقوق الإنسان مثلاً (حقوق المرأة ، حق الإعتقاد.. إلخ) فإذا كانت قيم الإسلام قد جمعت فأوعبت كل القيم الإيجابية حتى نهاية الأزمان ، فلماذا لا تعرض حكوماتنا قيمنا هذه على الامم المتحدة أثناء المناقشة في الهيئة الأممية ، خاصة أنه عالم حر يناقش و يستمع و يقبل و يرفض عن بينة و قرار ديمقراطي ، و هو لن يرفض قيمنا إن رأها أرقى من قيمه ، فقيم المواثيق الدولية شاركت فيها كل الإنسانية و قالت تجربتها و كلمتها حتى تم وجوبها وثيقة دولية ، و بنيت لها نصوص قانونية لحماية هذه القيم وصونها.

أم أن حكوماتنا تعلم سلفاً أن في قيمنا ما يعتورها بمقاييس اليوم الأخلاقية؟ يبدو أن حكوماتنا توقع الاتفاقات الدولية (تقية) أى كذباً و مداراة خوفاً و خزياً و عاراً، أى

تعلن عكس ما تبطن ، و يبدو أن تلك هي الحقيقة الصادقة الصادمة. وخير نماذج التقية الورعة ، استقبال شيخ الأزهرالدكتور سيد طنطاوي للجنة الحريات الدينية ، و توقيع الدكتور فوزي الزفزاف على العهد الدولي للحقوق الدينية ، بإشراف د. سيد طنطاوي الشيخ الأكبر و بحضور وفد الاتفاقية ، ثم إعلان الشيخ الأكبر فيما بعد أنه لا سمع بهذه الوثيقة و لا يعلم عنها شيئاً. رغم أن الحدث موثق بالصور التذكارية لحفل التوقيع بمكتب الشيخ الأكبر ، و رغم احتساب الفقهاء أن قيمة الوفاء بالعهد اختراع إسلامي قح.

شيخ أكبر آخر هو مفتى الديار المصرية الدكتور على جمعة أجاب بالإيجاب القاطع في أمريكا عن سؤال ، حول حق المسلم ترك الإسلام ، و بمجرد عودته قامت دار الإفتاء كلها تؤكد أن كلام المفتى ثم تحريفه عن معناه كعادة الضالين و المغضوب عليهم في التحريف ، لأن الإسلام لا يسمح بخروج المسلم من دينه بالمطلق.

هذه مشاكل فضائحية تحدث علناً دون أى تحرج ، فأى حديث هذا عن القيم الأخلاقية؟ و أى قيمة في التوقيع حرجاً أو جبناً ثم الرجوع الكاذب و المخالف؟

المشكلة تصبح أعوص مع تسليمنا أن القيم الموجبة كلها جاءت في إسلامنا ، لأن هذا التسليم يعني ضمنياً و يقيناً رفض قيم الحداثة و القيم الحقوقية الإنسانية و قيم العلوم الغربية كلها ، مما يعني خروجنا برغبتنا من التاريخ و من المستقبل ، لأن ما عندهم هناك هو الباقيات الصالحات و ليست هنا. رؤيتنا تجعل كل ما حققه العالم الحر هو أدنى قيمياً و خلقياً و علمياً ، ألا ترونهم يعضون علينا الأنامل حسداً لما نحن فيه من سعادة و نعيم مقيم؟! إنهم يحسدوننا على إسلامنا و مع ذلك يكتفون بالحسد و المؤامرات و لا يدخلون إلى سعادته و لا يختارون نعيمه و جنته و قيمه ، نكاية فيه! إن الاعتقاد بكلانية القيم إيمانياً يعنى ضمن ما يعني ، أن الاعتقاد برقي المجتمع الغربي هو إنكار لمعلوم من الدين بالضرورة! و هو ما يترتب عليه عدم رؤية ما بيد هذه المجتمعات من وسائل رقي و تقدم و الاكتفاء بالذات المريضة.

سنضطر باستمرار إلى الرجوع إلى القطب المرجعي الفقهي الشيخ **قرضاوي** عافاه الله مما هو فيه ، و هي دعوة صادقة مخلصة ، باعتباره معتمداً من الحكومات و الجماعات الإسلامية بكافة أطيافها ، و من الإخوان ، و من الأزهر ، و من قاطعى الرقاب ، و هو من يركز حديثه الدائم حول الفارق الأساسي بين المسلم و غير المسلم ، المتمثل في القيم الأخلاقية التي هي السمة و العلامة العظمي لرقي الإسلام و سماويته. و يقيم الشيخ هذه المسلمة على آيات قرآنية و أحاديث نبوية و أحداث وقعت إبان الدعوة الإسلامية و بعدها ، بادئاً بأهم تلك القيم و هي (الوفاء بالعهد) ، و أوفوا بالعهود إن العهد كان مسؤولا. ليورد النص القرآني الذي يؤكد هذه القيمة

"ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق و المغرب ، و لكن البر من آمن بالله و اليوم الآخر و الملائكة و الكتاب و النبيين ، و أتى المال على حبه ذوي القربي و اليتامي و المساكين و أبن السبيل ، و السائلين و في الرقاب ، و أقام الصلاة و آتى الزكاة ، و الموفون بعهودهم إذا عاهدوا ، و الصابرين في الضراء و حين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، و أولئك هم المتقون / ٧٧ / البقرة".

ثم يعقب الشيخ بأن الله ارتقى بقيمة الوفاء بالعهد إلى درجة وضعها وضع بقية العبادات المفروضة كالصلاة و الزكاة.

في التاريخ الإسلامي و خاصة زمن التأسيس (زمن الدعوة) أحداث جسام متتالية ، يمكن البحث فيها عن قيمة (الوفاء بالعهد) ، و هي واحدة من القيم التي أولدها بين العرب العصر الجاهلي الثاني قبل الدعوة ، و المتوسط بينها و بين الجاهلية الأولى ، و هو العصر الذي تعود إليه مكرمات و مفاخر العرب القيمية الأخلاقية ، و هو التوليد الذي وقفت وراءه مجموعة من الأسباب الموضوعية على الأرض حينذاك.

تعد قيمة (الوفاء بالعهد) إحدى المظاهر المتعددة التي تتجلي من خلالها قيمة أعظم ، هي قيمة (الأمانة). و كلاهما (الأمانة) و تجليها في (الوفاء بالعهد) ، لم تكن شيئاً معلوماً في الجاهلية الأولى التي كانت قسوة و شظف و تركت أثرها أخاديداً و بثوراً أبدية في وجه العربي القيمي. كانت البيئة شحيحة ، بيئة ندرة و جوع كافر ، و مناخ أشد كفراً ، لذلك كان القتال حتى الفناء أو الإفناء في صراع صفري دائب على مواطن الماء و الكلأ حتى ينضب ، فتتحرك القبائل إلى موطن غيرة في عيالة و طفيلية شديدة على الطبيعة و منتجها الشحيح. في مثل هذه البيئة تكون معانى القيم شديدة الاختلاف عما نفهمة منها اليوم ، لأن القيم الأخلاقية التى يجب أن تسود هي ما يضمن الحياة في بيئة لا ترحم ، لذلك يكون الحديث عن الرحمة بمفاهيم أى زمان أو مكان آخر مختلفاً بالكلية عن مكان و زمان الجاهلية الأولى.

و لا يكون هناك معنى لكلمة (أمانة) و ما يترتب عليها ، فالأمانة في العربية أصلاً من الأمن و الأمان ، و هما لا يتوفران بالأمانة بل القوة القتالية البحت المجردة التى تحقق الأمن.

و تحدث أحداث عالمية ذات تأثير واسع ، ستؤدي سريعاً إلى تغير وجه التاريخ و الجغرافيا معاً ، عندما تدخل الإمبراطوريتان الرومية و الكسروية حربهما السبعونية ، لتطارد كل منهما الأخرى في أقاصي الأرض ، عدا مكان واحد لم يرغب فيه أياً منهما ، هو فيافي جزيرة العرب. مما هيأ للجزيرة فرصة القيام بأعباء تجارة العالم بعد قطعها في البحار ، من سواحل اليمن إلى سواحل الشام و بالعكس في رحلتي

الشتاء و الصيف. و هي التجارة التى قامت عليها قبيلة قريش محولة مكة من مجرد استراحة على الطريق إلى مدينة و حاضرة ذات أسواق كبري ، و شارك كل عرب الجزيرة في القوافل التجارية بأموالهم ، و حرسوا طرق التجارة حرصاً على أموالهم و منافعهم ، فكان أن نشأت قيماً هي فرز زمنها و ظروفه ، و أصبحت (الأمانة) القيمة الأولى الواجب احترامها حفاظاً على سيولة الطريق التجاري و ضمنها الوفاء بالعهد ، فكتبت قريش عهود الإيلاف للقبائل و الملوك برعاية الطريق ، و جعل مكة لمن دخلها مكان أمن و عبادة و فرح و عربدة و سعادة و تجارة و لهو و جنس يأمن فيه الجميع من الجميع في أشهر حرم معلومات توافقوا عليها هى شهور السفر والتجارة. و تم التأكيد على الوفاء بالعهود التى كتبتها قريش مع القبائل الضاربة علي الطريق لتضمن عدم اعتدائها على القوافل التجارية ، نظير عهد مقابل هو دفع جعالات من دخل القوافل لهذه القبائل المتناثرة بطول الطريق التجاري ، كان عهداً تجارياً بحتاً ، حتى القيمة مدفوعة الثمن. لذلك كان التأخير في دفع تلك الجعالات يقابل مباشرة بقطع الطريق حتى تفي قريش و كبار التجار بالتزاماتهم. و كان أن يرأس أحدهم قافلة فيتلاعب بأسهم الناس فيها ، فهو ما كان يعني دمار و بوار و خراب تلك التجارة ، لذلك حرص التجار من قواد القوافل الكبرى على حيازة لقب **(الصادق الأمين)** ، ليأمن الناس على أموالهم و تسيل التجارة و تفيض على الجميع بنفعها.

لكن العقائد الدينية لم تتمكن من التخلص من بدائية العبادة ، التي كان يتم فيها التقرب إلى الألهة بالقرابين البشرية من الأطفال الإناث (في ظاهرة الوأد) و الذكور (كما في حال عبد الله أب النبي محمد - ص - الذي افتداه أبوه عبد المطلب من الألهة بمائة من النياق) ، حتى جاء الإسلام و نقل العرب نقلة دينية ألغت و جرمت و أنهت القربان البشري في الطفولة ، و جعلته قرباناً يحدث عن قناعة عاقلة للشخص الراشد في عقيدة الجهاد.

و قد علمنا أن الإسلام قد عاد بالعرب إلى بعض الجاهلية الأولى مضطراً لحسابات ظروف موضوعية ستأتي بمكانها من هذا البحث ، عندما عاد إلى شرعية الغزو و السلب و النهب و الغنم ، (و كلها مصطلحات إسلامية بالكتب الأمهات في إشارتها للفعل العسكري الجهادي زمن الدعوة)، و هو ما حاصر قريشا اقتصادياً و أصابها في مقتل حتى سقطت ثمرة ناضجة بيد القوة الإسلامية الطالعة ، كانت الغاية بحاجة إلى تلك الوسيلة ، لذلك جعلها الإسلام وسيلة مشروعة ، بل و مطلوبة بل و مأجورة و مثابة أعظم الثواب ، و قال النبي بوضوح شديد "أحلت لنا الغنائم و لم تحل لأحد من قبلنا ، و ذلك أن الله تعالى رأى عجزنا و ضعفنا فوهبها لنا / متفق عليه بكل الصحاح " ، بل و كان للنبى خمس ما يغنم المسلمون في معاركهم " إنما غنمتم من

شئ فإن لله خمسه و للرسول / قرآن كريم " ، و كان القرآن شديد الدقة و الوضوح في العودة إلى زمن الغزو و السلب و النهب و الغنم بقول الله تعالى للمسلمين : " فكلوا مما غنمتم طيباً حلالاً ".

و هو الأمر الذي يترتب عليه إعادة السؤال حول قيمة الوفاء بالعهد ، و هل أستمرت في الواقع الفعلي للمسلمين بعد ظهور الإسلام ، أم تراجعت مع ما تراجع من قيم الجاهلية الثانية إلى قيم الجاهلية الأولى؟ نطرح هنا نماذج ثلاث حدثت إبان وجود النبي (ص) في يثرب.

**النوذج الأول :**

نقض عهد صحيفة المعاقل :

أول نقض رسمي لعقد اجتماعي و عهد سياسي مكتوب :

يقول البيهقي : " و أذل الله بوقعة بدر رقاب المشركين و المنافقين ، فلم يبق في المدينة منافق و لا يهودي إلا و هو خاضع عنقه ، لوقعة بدر / الدلائل / ج ٣ / ص ١١٧ ".

بعد النصر البدري المؤزر و حصول المسلمين على غنائم عظيمة خاصة السلاح ، استرسل الوحي يقول : "و أعدوا لهم ما استطعتم من قوة و من رباط الخيل ترهبون به عدو الله و عدوكم و آخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم / ٦٠ / الأنفال".

و عدو الله و عدو المسلمين معروف هم ملأ مكة ، أما الآخرين الذين لا يعلمهم المسلمون ، فهو ما أوضحته الأحداث التالية ابتداء بنداء النبي (ص) لرجاله : "من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه / السهيلي / الروض الأنف / مج ٣ / ص ١٦٤" ، في منعطف تاريخي مفصلي جاءت مفاصله في آيات تنسخ حرية الاعتقاد ، لتنهي العمل بآيات من قبيل "لكم دينكم و لي دين / ٦ الكافرون" ، و تم نسخ الصفح الجميل و الصبر الأجمل ، بقانون جديد حاسم هو "إن الدين عند الله الإسلام / ١٩ / آل عمران" (أنظر نواسخ القرآن بأى مصدر للنواسخ / متفق عليه).

و تتالى الأحداث سراعاً ، فيروي الزهري عن عروة " نزل جبريل على رسول الله (ص) بهذه الآية : و إما تخافن من قوم خيانة ، فأنبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ، فقال رسول الله (ص) : أنا أخاف من بني قينقاع (أحد القبائل اليهودية الثلاث بيثرب) ، فسار إليهم و لوائه بيد حمزة / ابن سيد الناس ، عيون الأثر ، ج ١ ، ص ٣٥٣ ". و انجلت غزوة قينقاع عن طردهم من يثرب كأول قبائل يهود يتم

إجلاؤها ، بعد أن استولى المسلمون على كراعهم و أسلحتهم و أرضهم ، مما زاد في قوة المسلمين العسكرية و راحتهم الإقتصادية.

و عندما رأت قريش نفسها محاصرة في رزقها بعد أن قطع المسلمون عليها طريق الإيلاف الشامي ، أجمعت على قتال محمداً و ذلك في الوقعة المعروفة بوقعة أحد التى انهزم فيها المسلمون هزيمة مريرة ، أدت بالبيهقي لتصوير حال يثرب بعد الهزيمة بقوله : "و فارت المدينة بالنفاق فور المرجل / البيهقي / دلائل النبوة / ج ٣ / ص ٢١٦".

و ترنحت الدولة الطالعة ، فتم اتخاذ إجراءات سريعة حاسمة عنيفة متتالية لا تهدأ لإصلاح ما أفسدته أحد ، بالقضاء على رؤوس المعارضة (المنافقين) فتدحرجت رؤوس كبار القوم ، تم اغتيالهم ليلاً مثل رأس (سلام بن أبي الحقيق) المعروف بأبي رافع ، و (أبي عفك عمرو بن عوف) ، و (عصماء بنت مروان) عقيلة بني خطمة ، و (خالد بن سفيان) سيد هذيل ، و (فاطمة بنت ربيعة) زعيمة فزارة و محل شرفها (أنظر ابن حبيب في محبره ص ١١٧ ، و ابن كثير في البداية ج ٤ ص ٣٩ أو ١٤٢ ، و ابن سيد الناس في عيون الأثر ج ٢ ص ١٤٥ ، السهيلي / شرح السيره / مج ٤ / ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، و الطبري في تاريخه ج ٣ في ص ١٥٦) ، إعلاناً عن أن السيف المحمدي و إن كسرت منه الذؤابة في أحد ، فإنه مازال قوياً مقتدراً و عنيفاً ، إعلاناً عن الإصرار على استدامة الدولة الناشئة مهما كلف ذلك من أرواح.

و يحكي ابن كثير أحداث العام الثاني للهجرة بقوله : إن فيها "حولت القبلة. . و فرض صيام رمضان. . و زكاة النصب و زكاة الفطر ، و فيها خضع المشركون من أهل يثرب و اليهود. . صانعوا المسلمين و أظهروا الإسلام و هم في الباطن منافقون. . قال ابن جرير : و فيها كتب الرسول (ص) صحيفة المعاقل ، و كانت معلقة بسيفه".

و ابن كثير إذ يوقت الصحيفة بنهاية العام الثاني للهجرة ، فهو بذلك يختلف عن رواة آخرين قالوا أنها كانت أول عمل للنبي عند وصوله يثرب مهاجراً من مكة. هذا علماً أن ابن كثير نفسه يثير التناقض بذلك مع ما سبق له أن ذهب إليه مع الجمهرة ، بأن صحيفة المعاقل قد تمت كتابتها بين أهل يثرب جميعاً و بين المسلمين المهاجرين عند وصول النبي يثرب ، حيث تبدو يثرب جميعاً قد عمها الإيمان ، و يظهر فيها النبي سيداً مقبولاً من الجميع عن رضى غير واضح الأسباب بما فيهم اليهود ، فكتبوا معه صحيفة المعاقل التي ترد كل أمر في يثرب إلى النبي وحده. و هو كله ما يخالف و يناقض واقع الأحداث ، ذلك الواقع الذي يحيلنا إلى النبي و

أتباعه المكيين مهاجريين ضعاف متخفين هاربين من بلادهم ، و من بين أهله بالعصب (أعمامه) إلى حمى (رحمة) أخواله اليثاربة من بني النجار الخزرجيين ، و هو ما يحيط الصورة التي رسمتها كتب الأخبار و السير للاستقبال الهائل ، و طلع البدر علينا ، و الطاعة الكاملة من الجميع لسيدهم الغريب المكي ، بكثير من الشك و عدم المصداقية ، حيث ذات المصادر تؤكد أن غالب أهل يثرب كانوا يهوداً أو وثنيين ، و إن كثيرا ممن دخل منهم حلف المسلمين كان منافقاً أو دسيسة ، لذلك رجع ابن كثير عما قال في بداية الفصل ليؤخر زمن صحيفة المعاقل إلى السنة الثانية للهجرة ، بحيث تبدو الأحداث أكثر منطقية مع مقدماتها ، فاختار الزمن الذي تحول فيه المسلمون إلى قوة قادرة على فرض هيمنتها.

و لمزيد من التدقيق نجد غزوة قينقاع لم يرد فيها أية إشارة لتعاقد المسلمين مع اليهود ، و لم نقرأ فيها ما يشير إلى منابذة قينقاع للنبي بنقضه للعهود ، كما حدث في الوقائع التالية مع قبيلتي النضير و قريظة ، و هو ما يشير إلى أنه حتى غزوة قينقاع لم تكن هناك عهود ولم تكن صحيفة المعاقل قد وجدت بعد.

و إن هذا الإختلاف و التناقض يدفع الباحث إلى محاولة جديدة للتزمين الأوفق لصحيفة المعاقل ، حيث نعتقد أن تلك الصحيفة قد كتبت ضمن مجموعة الإجراءات الحاسمة مع تراجعات محسوبة ، و التي تمت بعد هزيمة المسلمين في أحد.

معلوم أن هزيمة أحد هزت معنويات المسلمين بعنف حتى نادي المهاجرون بالعودة إلى قريش و نفض أيديهم من الموضوع كله (البيهقي / الدلائل ج ٣ ص ٢١) بينما قال صحابة آخرون من الأنصار اليثاربة : " لو كان من الأمر شئ ما قتلنا ها هنا / ١٥٤ / آل عمران "و هو ما يعني إنكارهم الوحي و الدين معاً. لكن أحد لم تقض على مخزون السلاح البدري الذي تم استخدامه في حملة المسلمين الأولى على اليهود (قينقاع) و انتهت بمزيد من قوة المسلمين بعد استيلائهم على ممتلكات قينقاع ، ثم في حملتهم الثانية على اليهود ، و كانت على بني النضير ، و تؤكد كتبنا "أنها قد حدثت بعد وقعة سبقتها هي وقعة بئر معونة / ابن كثير / البداية / ج ٤ / ص ٧٦". و نحن نعلم من ذات الكتب أن بئر معونة قد وقعت بعد أُحد بزمن ، و بعد غزوة أخرى أسبق هي وقعة الرجيع التي وقتها الواقدي في صفر سنة أربع للهجرة. و نعلم أيضاً أن بني النضير قد نابذوا النبي في تلك الوقعة بنقضه للعهود و المواثيق ، مما يشير إلى أن صحيفة المعاقل كانت قد عقدت قبل غزوة النضير المشهورة ، حتى نفهم منابذتهم له بنقض العهود ، و أنها تمت في الزمن الواقع بين غزوتي أُحد و النضير ، و هو ما يمكن الكشف عنه في قراءة البيهقي للحكاية إذ يقول :
"اجتمعت بنو النضير بالغدر ، فأرسلوا إلى النبي ص : أن أخرج إلينا في ثلاثين من

أصحابك ، و ليخرج منا ثلاثون حبراً ، حتى نلتقي بمكان المنصف فيسمعوا منك ، فإن صدقوا و آمنوا بك آمنا بك ، فلما كان الغد ، غدا عليهم رسول الله بالكتائب فحصرهم فقال لهم : إنكم و الله لا تأمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه ، فأبوا أن يعطوه عهداً ، فقاتلهم يومهم هذا ، فعاهدوه ، ثم غدا على بني قريظة بالكتائب و دعاهم إلى أن يعاهدوه ، فعاهدوه فانصرف عنهم / دلائل النبوة / ج ٣ / ص ١٧٩".

و من الخبر نفهم أن يهود النضير أرادت وضع حد لمشكلة علاقتهم بالمسلمين ، إما بالدخول في الإسلام بعد جدل و حوار يثبت فيه الإسلام جدارته عن اليهودية بالدليل و البرهان ، أو بعدم الدخول فيه إذا لم يقتنعوا به مع إيجاد صيغة سلامية للتعايش و تهدئة للموقف المتوتر بعد قطع الرؤوس من أشراف اليهود. و أن يتم ذلك بالجدل و الحوار و المناظرة ، لكن النبي رأي أن يتعامل معهم بمنطق آخر فجرد عليهم الكتائب حتى نزلت النضير على عهد مكتوب ، ثم رضت قريظة بالعهد دون قتال ، و لا نعلم عهوداً تمت مع اليهود سوى صحيفة المعاقل.

و عليه فإن المعاقل قد تمت فيما نذهب إليه (عن محاولة اجتهادية لا قطعية) ، ضمن سلسلة الإجراءات السريعة الحاسمة ، لإصلاح ما أفسدت أحد و علاج آثارها لرفع روح المسلمين المعنوية ، و بداية اهتمام واضح بالجبهة الداخلية لتأمينها اولاً قبل معارك الغزو ، و ضمن هذا التأمين قدم النبي تنازلاً تراجعياً وضح في النص "لليهود دينهم و للمسلمين دينهم / مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي ، ١٩٨٥ / ص ٦١".

لكن ما حققته الصحيفة من إيجابيات هو أنها حولت المسلمين من لاجئين إلى مواطنين على ذات درجة أهل يثرب ، ثم إعادة الأمر كله لسيد المدينة الجديد الذي غدا بلا منافس بعد قطع رؤوس سراة القوم و سادتهم. و لعل في تعليق الرسول (ص) للصحيفة بسيفه رمزاً واضحاً يحمل معنى السلام القائم على القوة و الإقتدار. أما أهم بنود الصحيفة فهي تلك التي تقول في مفتتحها : " هذا كتاب من محمد النبي الأمي " و المقصود نبي الأميين (جمع أمم) أى نبي الأمم أى (الجوييم) أى غير اليهود. و المفتتح يشير إلى المعاقل كفرمان صادر من سلطة النبي السيادية ، فأطراف الصحيفة لم تكن متكافئة ، فهو سلام مفروض فرضاً ، أو هي بمثابة كتاب أمان من النبي ، أو عقد اجتماعي مفروض ، مع فرض صفة النبوة للنبي في الوثيقة الرسمية ، لتعني اعترافهم بذلك راغمين و لو لم يؤمنوا ، و هو ما يعني عند العربي الإذلال بإحناء الرأس لأمر لا يعتقد فيه قهراً ، لذلك كثيراً ما كان الإسلام يفرق بين المسلم و المؤمن ، فالمؤمن هو صادق اليقين بعكس من أسلم خوفاً أو رشوة بتأليف

قلبه ، و قد جاءت الصحيفة متجاوبة مع رغبة اليهود و بقية مشركي يثرب في الأمان بعدما اجتز السيف الإسلامي رؤوس سادتهم.

أن ابرز المفاصل في الصحيفة فهي : " و إنكم مهما اختلفتم في شئ ، فإن مرده إلى الله عز و جل ، و إلى محمد (ص) " ، هي خطاب من سيد لمسود " إنكم " ، و ليست (نحن الموقعون) ، و الأمر الأشد دلالة قانون بالصحيفة يقول : " و إن بطانة اليهود كأنفسهم ، و إنه لا يخرج أحد منهم إلا بإذن محمد. . ، و إن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، و أنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو شجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله و إلى محمد رسول الله / ابن كثير / البداية / ج ٣ / ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ ".

و بين الأفخاذ القبلية التي تم تعدادها كأطراف للمعاقل ، تم وضع المهاجرين كأبناء البلد ، و كفخذ من الأفخاذ البشرية الأصيلة فيها ، بل أن الصحيفة أكسبت المهاجرين ليس الوجود الشرعي فقط و لا المواطنة عوضاً عن اللجؤ فقط ، بل غدا الأنصار أنفسهم إزاء المهاجرين تابعين لا مجيرين و متبوعين.

الأهم من كل هذا أنه لابد من افتراض حدوث وقعتين ضد بني النضير لا وقعة واحدة هي المشهورة ، وقعة أولى حاصرهم فيها المسلمون و فرضوا عليهم صحيفة المعاقل ، تلاها بعد ذلك الوقعة المشهورة في تاريخنا و التي تم بموجبها إجلائهم عن يثرب و الاستيلاء على ممتلكاتهم.

و تتالى الأحداث ، فيقتل المسلمون بعض الأعراب الوثنيين من بني عامر عرضاًو خطأ حيث كان بينهم و بين النبي عهد خضوع مقابل السلام ، فقاموا يطلبون من النبي دية القتلي إلتزاماً بالسلام و عدم إعلان الحرب.

هنا يحكي لنا الطبري أن النبي ذهب إلى بني النضير يطلب منهم مساعدته في أداء دية القتيلين العامريين؟ ، يقول الطبري: "فانطلق رسول الله (ص) إلى قباء ، ثم مال إلى بني النضير مستعيناً بهما في ديتهما ، و معه نفر من المهاجرين و الأنصار و فيهم أبو بكر و عمر و علي و أسيد بن حضير ، فلما أتاهم الرسول يستعينهم في دية ذلك القتيلين ، قالوا : نعم يا أبا لقاسم نعينك على ما أحببت ، مما استعنت بنا عليه / الطبرى / التاريخ / ج ٢ / ص ٥٥١".

و هكذا لم تسوف النضير و لم تماطل ، و يبدو أنها قدرت الأمر بعمق ، فمازال خروج قينقاع المهين ماثلاً ، و هناك صحيفة معاقل تضمن لهم قدراً من سلام لا يرغبون غيره ، مع مسلسل اغتيال رجالها المقدمين ، ناهيك عن معرفتها أن المسلمين قد غدوا مقتدرين مالياً على أداء مثل تلك الديات بعد الإستيلاء على

ممتلكات قينقاع و أموال فك أسرى بدر من المكيين ، و من ثم كانت الحكمة تقتضي تلك الإجابة العاقلة بحيث لا يعطون أى فرصة لنقض صحيفة المعاقل التى لم يمض على عقدها سوى ستة أشهر.

و يتابع الطبرى يقول : "أن يهود النضير عندما أجابوا النبي (ص) إلى ما طلب. . قام النبي و قال لأصحابه : لا تبرحوا حتى آتيكم ، و خرج راجعاً إلى المدينة ، فلما استلبث رسول الله (ص) اصحابه ، قاموا في طلبه ، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة ، فسألوه عنه ، فقال : رأيته داخلاً المدينة ، فأقبل أصحاب رسول الله (ص) حتى انتهوا إليه. فقالوا: يا رسول الله انتظرناك و مضيت ، فقال : يهود همت بقتلي و أخبرنيه الله عز و جل / الطبري / التاريخ / ج ٢ / ص ٥٥١ ، ٥٥٢".

و يشرح ابن إسحاق في سيرته : "فأتى رسول الله الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام و خرج عائداً إلى المدينة".

و لم يكن هناك سوى رد واحد على خبر السماء ، فقد هموا بارتكاب الخيانة ، و أن الله قد علم ذلك ، فأرسل النبي لهم : أخرجوا من بلدي؟ ! فلا تساكنونى بها و قد هممتم بما هممتم به من الغدر ، و قد أجلتكم عشراً ، فمن رُئي بعد ذلك ضربت عنقه / ابن سعد / الطبقات / مج ٢ / ج ١ / ص ٤١ ".

كانت اليهود تعتقد أن يثرب مدينتها منذ قرون مضت ، فإذ بها قد أصبحت مدينة رسول الله ، و زاد النكاية في اختيار حامل هذه الرسالة للنضير ، كان حليف النضير الأوسي (محمد بن مسلمة) ، حتى تساءلت النضير عن حلفها مع الأوس و عقدها المتين قبل دخول الأوس في الإسلام ، قائلة لمحمد بن مسلمة : " يا محمد ما كنا نرى أن يأتى بهذا رجل من الأوس ، فقال محمد : تغيرت القلوب / البيهقي / الدلائل / ج ٣ / ص ٣٦٠ " ، أو بقوله في الطبري : " تغيرت القلوب ، و محا الإسلام العهود / التاريخ ، ج ٢ / ص ٥٥٢ " ، فكان ردهم محمولاً إلى النبي مع محمد ابن مسلمة : "إنا لا نخرج من ديارنا فأصنع ما بدالك ". و يقول ابن كثير " و حمى حييي ابن أخطب (زعيم النضير) ، و بعثوا إلى رسول الله (ص) أنهم لا يخرجون ، و نابذوه بنقض العهود / ج ٤ / ص ٧٧ ". هذا بينما فهمت القبيلة اليهودية اليثربية الثالثة و الأخيرة قريظة ما يحدث ، فالتزمت ببنود صحيفة المعاقل ، و هو ما يقول بن سعد في تقرير واضح : " و اعتزلتهم قريظة فلم تعنهم / نفس الموضع " ، و أعلن زعيم قريظة (كعب بن أسد) : " لا ينقض العهد رجل من بني قريظة و أنا حي ". و يحكى أن رأساً من رؤوس النضير هو سلام بن شكم قال لرفيقه حييي بن أخطب : " يا حييي إقبل هذا الذي قال محمد قبل أن تقبل ما هو شر منه ، قال : و ما هو شر منه؟ قال : أخذ الأموال و سبي الذرية و قتل المقاتلة ،

فأبي حييي و أرسل إلى رسول الله (ص) : إننا لا نريم دارنا فأصنع ما بدا لك ، فكبر رسول الله (ص) و كبر المسلمون معه و قال : حاربت يهود " ، أى أعلنت اليهود نقض الصحيفة بإعلانها الحرب على المسلمين.

و انتهى حصار النضير بأن " صالحوه على أن يحقن دماءهم و له الأموال و الحلقة / أى السلاح / الطبرى / ج ٢ / ص ٥٥٣ ". و وافق النبي (ص) ، و أمر بتهجيرهم و أعطى لكل ثلاثة منهم بعيراً واحداً يركبونه حتى لا يمكنهم حمل المتاع. لتختم الآيات الأحداث بقولها : " سبح لله ما في السماوات و ما في الأرض و هو العزيز الحكيم ، هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم. . و قذف في قلوبهم الرعب. . و ذلك بأنهم شاقوا الله و رسوله ، و من يشاق الله فإن الله شديد العقاب / ١ : ٤ الحشر ".

**لاشك سيطرح السؤال نفسه هنا حول قيمة الوفاء بالعهد؟** و من الذي نقض العهد حقاً؟ ومن أطاح بهذه القيمة؟.

لاشك نحن كمسلمين نؤمن و نصدق خبر السماء الذي أنبأ نبينا بما كاد اليهود يهمون به لقتله ، و نحن لم نسمع خبر السماء ، لكننا عن يقين كامل نصدقه لأن ناقله هو خير البرية الصادق الأمين ، لكن غير المسلم سيقرأ الأحداث قراءة أخرى خاصة أن قيمة الوفاء بالعهد قيمة إنسانية لا تخص المسلمين وحدهم ، فهم لن يصدقوا خبر السماء مثلنا بعد أن ختم الله على قلوبهم أكنة و لم يفتح بصيرتهم ، سيقرأون الوقائع كما سردتها أمهات كتبنا الإسلامية المعتمدة ، وسيعلنون مع الصحابي محمد بن مسلمة : أن الإسلام يجب العهود ، بمعنى أن الإسلام يجب غيره ، و التسليم له و الاعتقاد في سلامته وحده ، يترتب عليه نقض كل ما يخالفه ، و كم حفل تاريخنا ببطولات لم تقف عند حد نقض العهود بل تمزيق عهد الأسرة تمزيقاً ، يقتل فيها المسلم أخيه ، بل و أبيه ، و كم يتغني بمن كان مثل أبا عبيدة بن الجراح الذي دفعه إخلاصه لدينه إلى ذبح رحمه و عصبه ، قتل أبيه ، و قال له و هو يذبحه : خذها في سبيل الله / أحمد شلبي / السيرة العطرة / ط ١٢ / ج ١ / ص ٣٧٥ : ٣٧٧" ، و هو ما أفصح عنه رد المسلمين على نداء النبي بعدم قتل عمه العباس إذا لقوه في بدر الكبرى ، قال أبو حذيفة بن عتبه : " أنقتل آباءنا و إخواننا و عشيرتنا و نترك العباس؟ و الله لئن لقيته لألحمنه السيف / ابن سيد الناس / عيون الأثر / ج ١ / ص ٣١٠ ".

ليس هناك عقد في التاريخ كله أعلى درجة في القيمة من كل العهود كعهد الأسرة الذي أسس لقيام المجتمع الإنساني ، لكن الإسلام جب حتى هذا العهد فقتل الإبن أبيه في سبيل الله ، و قتل إخوانه و عشيرته في سبيل الله. كل هذه المعاني تكتسب قيمتها

من قدسية الدين لا من مشهد الوقائع على الأرض ، فمشهد الوقائع ينفي عن كل تلك الأحداث أى معنى للقيم بمعناها الإيجابي الذي نفهمه منها اليوم بعد مرور أربعة عشر قرناً تغيرت فيها المفاهيم و اكتسبت القيم دلالات جديدة ، لكنا كمسلمين نصدق و نسلم بضمير مستريح كامل اليقين، و نرى أن لله حكمته في ذلك و التى تخفى علينا ، لكن مثل هذا المأثور سيثير في الضمير المسلم الكثير من المشاكل لو تصورناها صالحة لكل زمان و مكان ، لأن كسر القيم الموضوعية لصالح الربانية ، كان له هدفاً يتعلق بعرب الحجاز و تاريخهم وحدهم ، عندما كان الإسلام يقيم لهم دولة كونفودرالية في حالة خاصة جداً بهم و بزمنهم و بيئتهم و نظمهم ، و لا يتعلق بنا و لا بأوطاننا و لا بتاريخنا الوطنى لا في مصر و لا أفريقيا و لا الشام و لا فارس.

لذلك فإن القول بالصلاحية لكل زمان و مكان لابد أن يفضى إلى تناقض صارخ بين ما وصل إليه الإنسان اليوم من قيم ، و بين قيم كانت تناسب بيئتها البدوية القاسية و عاداتها الجافية ، و ظروفها السياسية التي استدعت بتصريح النبي للمسلمين بـ "المكر و الخديعة" ، و إلا ما قامت دولة القبائل الاتحادية الإسلامية لعرب الجزيرة و لا توحدت قبائلها تحت رئاسة قريش.

كانت قيماً ضرورية لزمانها ، لكنها في زماننا ستكون خللاً فادحاً في القيم ، و من يستدعها مؤمناً بقدرتها على الفعل الأخلاقي اليوم ، يخرج نفسه عن الإنسانية جميعاً و ما تواضعت عليه من قيم هي الأرقى موضوعياً. و ما قطع رؤوس الأبرياء أمام الكاميرات مع التكبيرات الإسلامية بيد مشايخ الجهاد الزرقاويين ببعيد ، هو عودة قاصرة إلى ظاهر الدين لا محتواه ، و دون معرفة صادقة بظروف الوحي التاريخية ، بل و رفض لهذه التاريخية أصلاً ، و هو ما شكل صورة المسلم القبيحة أمام العالمين ، و هو بالتأكيد ما لا نريد لأنفسنا و لا لديننا ، و لا يبقى سوى أن نؤمن ثم للصلح مع زماننا نسلم أن مثل تلك القيم إنما كانت تخص زمانها و مكانها وحدهما ، و سحبها لزماننا لم يؤد إلا لما نراه من خراب الضمائر ، و دمار الديار ، و فساد و إفساد هائل لم تعرفه بلادنا أبداً قبل صحوتنا. لا بارك الله فيها

# النقض الثاني لصحيفة المعاقل

أتابع هنا (قيمة الوفاء بالعهد) في الإسلام و التي يتغني بها المتأسلمون ، بدراسة للنقض الثاني لصحيفة المعاقل التي عقدها النبي محمد (ص) لكل أطراف المدينة و فرقها ، و لم تعش شهوراً ، حتى تم نقضها ، النقض الأول بغزوة النضير و إجلائهم عن مدينة يثرب ، فتوجه بعضهم نحو فلسطين ، و توجه بعضهم الآخر بقيادة زعيمهم حيي بن أخطب نحو واحة خيبر شمالي الحجاز على مبعدة حوالي ٤٠٠ كم من يثرب ، ضيوفاً على أهل ملتهم هناك ، .... ثم النقض الثاني الذي انتهي بمجزرة قريظة و هو مناط البحث هنا.

في حديثه عن القيم في الإسلام فإن الشيخ **قرضاوي** المرجع الفقهي الأنشر يذكر لنا الآيات الكريمة "قد أفلح المؤمنون ... الذين هم لأمانتهم و عهودهم راعون ، و الذين على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون / ٥١ : ١١ / المؤمنون". و يعقب بأن ذلك يعني أن الله قد جعل من قيمة الوفاء بالعهد قيمة ترقي في تلازمها مع أداء العبادات ، فيكون المسلم متعبداً لربه عندما يراعي هذه القيمة / ملامح المجتمع المسلم / مكتبة وهبه / ص ٩٢ : ١٠٩ ".

معلوم بكتبنا التراثية أنه رغم النزاع الذي نشب بين قبيلة النضير اليهودية و المسلمين و انتهى بإجلاء النضير ، فإن قبيلة قريظة اليهودية ، رفضت مد أي عون لشقيقتها النضير ، و أصرت على الحفاظ على عهد صحيفة المعاقل ، منعاً لأي سبب قد يجر عليها ما هي في غني عنه.

و قد حظي (حيي بن أخطب) سيد النضير بسهم وافر من الذكر في تاريخنا لأنه هو من قام بحشد العرب و تحزيب الأحزاب ضد المسلمين ، و جمعهم في حلف ضد يثرب لكسر شوكة المسلمين، ثأراً لقبيلتي قينقاع و النضير ، فأخذ سادة العرب اليهود مثل سلام بن أبي الحقيق و كنانة بن الربيع و هوذة بن قيس الوائلي و أبو عمار الوائلي ، و انحدر بهم إلى مكة ليدرك ثأره من محمد (ص) ، و استجابت قريش و أحلافها العرب لوضع حد لما حدث لتجارتهم و أمنهم على يد المسلمين ، مع رغبة أكيدة في الثأر لقتلاها ، في حلف عظيم توجهت جيوشه نحو يثرب بغرض توجيه ضربة قاتلة و نهائية تجهز على الوجود الإسلامي في الجزيرة. جيوش جمعت فرسان كنانة و أهل تهامة و أشاوس غطفان و أشداء نجد الذين وتروا في زعامتهم المغدورة ، (و لم ينس الفزاريون مقتلة عقيلتهم أم قرفة تمزيقاً بين بعيرين على يد زيد بن حارثة ، و التي تصورها أفلامنا السينمائية الإسلامية لكن بالعكس ، فتجعل من مسلمة فقيرة هي من تم تمزيقها بالبعيرين المتعاكسين

على يد الأشرار الكفار / و هو ما يستدعي السؤال حول قيمة الصدق في مشايخ الإسلام ، مع صمت كل الفقهاء و الشراح و الوعاظ عن هذه الكذبة الكبرى). لكن زعيم غطفان الجديد عيينه بن حصن الفزاري ما شغله ثأر أم قرفة قدر ما شغله العائد المادي ، فمنحه يهود خيبر ثمر بلادهم لمدة عام كامل "فلما سمع بهم رسول الله (ص) ضرب الخندق حول المدينة ، و كان الذي أشار على رسول الله (ص) ضرب بالخندق سلمان الفارسي ، قال : يا رسول الله كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا / الطبري / التاريخ / ج ٢ / ص ٥٦٦ ".

سبق وأخذ النبي في أحد بمشورة شباب المسلمين المتحمسين فخرج إلى عدو أكثر عدداً و عدة فهزم المسلمون شر هزيمة ، لذلك قرر في الخندق أن يأخذ بنصيحة عبد الله بن أبي سلول التي سبق و قالها له في أحد كخبير عسكري و لم يؤخذ بها حينها. قال عبد الله بن أبي سلول : " يا رسول الله أقم بالمدينة و لا تخرج إليهم ، فوالله ما خرجنا منها إلي عدو قط إلا و أصاب منا ، و لا دخلها علينا إلا أصبنا منه ، فدعهم يا رسول الله ، فإن أقاموا أقاموا بشر محبس ، و إن دخلوا قاتلهم الرجال في وجههم. و رماهم النساء و الصبيان بالحجارة من فوقهم ، و إذا رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا / السهيلي / الروض الأنف / ج ٣ / ص ١٤٩ ".

و مع ذلك فإن كتبنا التراثية لا تني تصف ابن سلول بكبير المنافقين ، فقط لأنه كان صوتاً معارضاً أحياناً. لكن عندما تعلق الأمر ببلده أحسن النصح مخلصاً. إلا أن ما يلفت النظر بشدة أن قريظة لم تقف على الحياد بل أخلصت لعهدها ، فأمدت جيش المسلمين بآلات الحفر و نقل الأتربة " فاستعاروا من بني قريظة آلة كثيرة و مساحي و كرازين و مكاتل / الحلبي / السيرة / ج ٢ / ص ٦٣".

و بينما وصل جيش الأحلاف إلى عشرة آلاف مقاتل ، لم تتمكن يثرب بأقصي إمكانات الحشد من جمع سوى ثلاث آلاف كبيرة و صغيرة و شاب و حدث ، و اشتد الحصار على المسلمين فنبأهم الرسول بفتح مدائن كسري تبشيراً لهم و رفعاً لروحهم المعنوية ، لكن معارضاً أخر لا يمكن احتسابه من المنافقين لأنه من أهل بدر الذين غفر الله لهم ما تقدم من ذنبهم و ما تأخر ، هو معتب بن قشير / أنظر : ابن هاشم / السيرة بشرح السهيلي بالروض الأنف / ج ٣ / ٦١ " ، الذي قال : "ألا تعجبون ؟ يعدكم الباطل ! و يخبركم أنه ينظر من يثرب إلى الحيرة و مدائن كسرى و أنها تفتح لكم ، و أنتم لا تستطيعون أن تبرزوا ؟ / ابن الأثير / الكامل / ج ٢ / ص ١٧٩". أو في قول آخر : " كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى و قيصر ، و أحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط / ابن هشام / الروض الأنف / ج ٣ / ص ٢٦١ ".

حتى حفر الخندق أثبتت قريظة وعيها الدقيق بموقفها الشديد الحساسية ، خاصة بعدما أصبحت بيوتها و حصونها جزءاً من الخندق ، فالخندق يحيط بالمدينة و ينتهى عند جبل سلع من طرف كحصن طبيعي يكفيه بعض الرماة ، ثم يصل حتى حصن قريظة على حافة المدينة بمواجهة الأحزاب مباشرة / لذلك كانت قريظة نقطة ضعف يثرب الوحيدة و التي أدركها جميع الأطراف: المسلمون و قريظة و الأحزاب ، كان يكفي أن تفتح قريظة باب حصنها لتمر عبره الأحزاب لينتهي الأمر كأن لم يكن.

وعي الحلف نقطة الضعف ، فذهب حيي بن أخطب الزعيم النضري المطرود إلى أبواب قريظة ، فأبى أن يفتح له سيد قريظة كعب بن أسد القرظي ، فظل يخاطبه و يذكره و ينصحه يخوفة من المسلمين وكيف جاءة بفرصة قد لاتتكرر للتحرر من سلطان المسلمين ، حتى فتح له فدخل ، " فلم يزل حيي بكعب يفتله في الذروة و في الغارب حتى سمع له ، على أن أعطاه عهداً من الله و ميثاقاً ، لئن رجعت قريش و غطفان ولم يصيبوا محمداً ، أن أدخل معك في حصنك ، حتى يصيبني ما أصابك ، فنقض كعب بن أسد عهده ، و برئ مما كان عليه ، فيما بينه و بين رسول الله (ص) / الطبري / التاريخ / ج ٢ / ص ٥٧١ ، أنظر أيضاً ابن هشام في السهيلي / ج ٣ / ص ٢٦١ ، و ابن الأثير في الكامل / ج ٢ / ص ١٨٠ ".

و هكذا أطمانت قريظة للحلفاء من الأحزاب و استقوت بهم ، مما يؤكد ما سبق و ذهبنا إليه في الدراسات السابقة عن عهد صحيفة المعاقل ، و أنها قد تمت كتابتها تحت السلطان المحمدي و بدعم من القوة الإسلامية ، لذلك ما أن أطمأنت قريظة إلى مساندة جيش الأحزاب ، حتى بدأت تفرض شروط استمرار صحيفة المعاقل من عدمه.

و بلغ الأمر المسلمين المحاصرين المجهدين الفزعين ما يحدث في حصون قريظة ، فأرسل النبي وفداً من الصحابة لبني قريظة ، فاشترطت قريظة لاستمرار الالتزام بالصحيفة و في مدد المسلمين ، إعادة بني النضير إلى المدينة مرة أخرى ، فتشاتموا و عادوا ليخبروا النبي ، و أمسى واضحاً حجم الخطر الآتي.

و عاد المسلمون للتدبر ليصلوا إلى نتيجة ، أنه إذا كانت نقطة ضعف يثرب هي قريظة ، فإن نقطة ضعف الأحزاب هي الأحمق الطماع المطاع (بوصف النبي لة) عيينه بن حصن الفزاري زعيم غطفان ، الذي يمكن تحويل موقفه بمزيد من الإغراءات المادية.

و تم التفاوض سراً مع زعيم عطفان على انسحاب الطماع برجاله مقابل ثلث ثمار المدينة ، لكن عينيه طلب النصف على ألا يكتفى بالانسحاب بجيوشة ، بل والإيقاع بين الأحزاب بالفتنة ، يرسل من يوقع الشك بين الأحزاب و بعضها ، و تمت الموافقة. و عندما أخبر النبي سعد بن معاذ و سعد بن عباده بعد انصراف وفد غطفان ، احتجا و قالا : إنا نرى ألا نعطيهم إلا السيف ، ليرد النبي : "فأنت و ذاك" ، فيتناول بن معاذ صحيفة التعاقد و يمحوها قائلاً : "فليجهدوا علينا / ابن سعد / الطبقات / مج ٢ / ج ١ / ص ٥٣".

بينما كان رجل غطفان الداهية نعيم بن مسعود ينفذ ما سمعه النبي و خطته للإيقاع بين الأحزاب ، أو في مختصر مفيد قوله (ص) لابن مسعود : " خذل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة / ابن هشام في السهيلي / ج ٣ / ص ٢٦٥ ". فنقض المسلمون الصحابة عهداً وقعه النبي دون علم الطرف الثاني من العهد !! بينما كان الطرف الثانى ينفذ جانبة من العهد .

بينما كان ابن مسعود يشكك قريظة في الأحزاب ، طلبت قريظة من الأحزاب رجالا من كبار أشرافها ضماناً لهم يدخلون حصنهم معهم كما دخل حيي بن أحطب ، بينما كان قد أخبر الأحزاب قبلها أن قريظة تتآمر بهم و ستطلب منهم رجالاً كباراً من زعماء الأحزاب تسلمهم لمحمد ليقتلهم.

و في ليلة شاتية قاسية مرعدة مبرقة وقع الخصام بين قريظة و الأحزاب ، مما دفع أبا سفيان للنداء بعودة الجيوش بعد نفاذ مخزون الزاد و الماء و اشتداد العاصفة. و هكذا أمكن لابن هشام القول : " و خذل الله بينهم " و ليس نعيم بن مسعود الأشجعي الغطفانى/ السيرة في السهيلي / ج ٣ / ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ ".

و صدق الله و عده لنبيه بانشمار الأحزاب راجعين إلى بلادهم ، ناهيك عن النتيجة الأهم و الأخطر و هي تحرير يثرب تماماً من العنصر اليهودي ، بعد أن همت قريظة بالخيانة ، فقد زحف الجيش الإسلامي و حاصر قريظة ، فأرسلت لمحمد أن يرسل لها أبا لبابة بن المنذر الأوسي ، " قالوا : يا أبا لبابة : ماذا ترى ؟ و بماذا تأمرنا ؟ فإنه لا طاقة لنا بالقتال " و جاء رد أبي لبابة بإشارة بإصبعه مروراً على عنقه ( يريهم أنه الذبح) / ابن كثير / البداية / ج ٤ / ص ١٢١ " .

يروي الطبري : " فقام إليه الرجال و أجهش إليه النساء ، و الصبيان يبكون في وجهه ، فرق لهم ، و قالوا : يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد ، قال : نعم ، ثم أشار بيده إلى حلقه : إنه الذبح / التاريخ / ج ٢ / ص ٥٨٤ ". " و قد كان حيي بن أخطب النضري قد دخل على بني قريظة في حصونهم بعد أن رجعت عنهم

قريش و غطفان ، وفاء لكعب بن أسد بما كان قد عاهده عليه / نفسه / ص ٥٨٣ " ، فأي قيمة للوفاء بالعهد يعدل احترامها تقديم النفس للموت عن النكوص عنه القيمة ؟ ! " ثم استنزلوا فحسبهم رسول الله .. ثم خرج إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق / نفسه / ص ٥٨٨ " (أى أمر بحفر حفر بالسوق ، و ذلك قبل صدور أى حكم بشأنهم).

قامت الأوس تتشفع عند النبي لحلفائها القرظيين كما سبق و تشفعت الخزرج للنضير فخرجوا بحياتهم تاركين أموالهم و عقارهم و متاعهم ، فرد عليهم : " ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيكم رجل منكم قالوا : بلي ، قال : فذاك سعد بن معاذ / نفسه / ص ٥٨٦ ". و حكم سعد على حلفائه اليهود القرظيين الذين أصبحوا (سابقين) ، بحكم شديد القسوة ، قال : " إني أحكم فيهم بأن يقتل الرجال و تقسم الأموال و تسبي الذراري و النساء ، فقال رسول الله لسعد : حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة / نفسه / ص ٥٨٧ ، ٥٨٨ ".

و من ثم يكشف الطبري سر الخنادق بسوق المدينة حيث أمر النبي بذبح القرظيين و كل من أنبت شعر عانته منهم من صبية صغار على تلك الخنادق ، " فضرب أعناقهم في تلك الخنادق ، يخرج إليه إرسالاً ، و فيهم عدو الله حيي بن أخطب و كعب بن أسد رأس القوم ، و هم ستمائة أو سبعمائة ، المكثر لهم يقول كانوا نحو الثمانمائة إلى التسعمائة ،. . أتى بعدو الله حيي بن أخطب مجموعة يداه إلى عنقه بجبل ، فلما نظر إلى رسول الله (ص) قال له : أما و الله ما لمت نفسي في عداوتك أبداً ، إنه لا بأس بأمر الله ، كتاب الله و قدره ، ملحمة قد كتبت على بني إسرائيل ، ثم جلس فضربت عنقه / نفسه / ص ٥٨٨ : ٥٩٣". وبقى من بينهم ذلك الذى سنعرفة بعد ذلك كصحابى (عطية القرظى) الذى نجا من المجزرة لأنهم عندما كشفوا عن عانتة وجدوها لم تنبت شعرا بعد.

و يحدد لنا البهيقي موقع تلك المذبحة الهائلة : "فتلوا عند دار أبي جهل التي بالبلاط ، و لم تكن يومئذ بلاطاً ، فزعموا أن دماءهم بلغت أحجار الزيت التي كانت بالسوق / دلائل النبوة / ج ٤ / ص ٢٠" وهو ما يعنى أن الخنادق قد امتلأت بالدم ثم فاضت منها حتى أقصى السوق. ليختم القرآن الكريم الملحمة في موجز بليغ يقول : "ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، و كفى الله المؤمنين القتال ، و كان الله قوياً عزيزاً. و أنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم (أي حصونهم) ، و قذف في قلوبهم الرعب ، فريقاً تقتلون ، و تأسرون فريقاً ، و أورثكم أرضهم و ديارهم و أموالهم و أرضاً لم تطؤوها و كان الله على كل شئ قدير / ٢٥ : ٢٧ / الأحزاب".

كادت قريظة أن تهم بنقض صحيفة المعاقل ، التي كتبت قهراً و شوكة ، فكان عقابها عملية إفناء كاملة. أليست العقوبة أشد بما لا يقارن بالجرم؟ في معيار القيم سيكون هذا الإفناء جريمة في حق الإنسانية بمقاييس اليوم و قيم اليوم ، و تكون الكارثة أعظم فداحة لو اعتبرنا ذلك ديناً و قيمة سماوية ، مع ملاحظة كيف نقض السعدان بن معاذ و بن عباده العهد مع غطفان بشديد البساطة ، و كيف نقض سعد بن معاذ عهده مع حليفته و حليفة الأوس قريظة بإصداره حكماً مرعباً شديد الوطأة و بلا شبيه في تاريخ الجزيرة بذات الهدوء والبساطة ، إخلاصاً لإسلامه و لنبيه ، و هو ما تلحظه أيضاً في موقف أبي لبابه الأوس ، مع ملاحظة أخرى في الموقف المبهر في وفاء حيي بن أخطب بعهده لصديقه كعب بن أسعد القرظي بالدخول معه إلى حصنه ، و هو يعلم أن مصيره الموت لا محالة.

على مقياس القيم كما نفهمها لابد أن يحتسب ما حدث خروج على كل القيم الإنسانية ، لصالح قيماً تحتسب دينية بينما كانت سياسية و عسكرية لها ظرفها التاريخي ، و رغم أن ما حدث كان مجزرة بكل المعاني ، إلا أن التاريخ يمتلئ بالمجازر ، و الأهم كان في النتائج ، و قد حققت مجزرة قريظة بعد ذلك دورها في إرهاب الجزيرة كلها بعدما تسامعت بخبرها ، مما سرع عملية الخضوع الطوعي لسيادة المسلمين ، كان سعد بن معاذ يرنو إلى المستقبل و هو يصدر حكمه المخيف و المرهب لكل جنبات الجزيرة مدوياً رجع صداة هلعا أينما سمع. .

إن قيمة الوفاء بالعهد مع ظروف قريظة تفقد معناها القيمي ، كما سبق و فقدته مع ظروف النضير ، و إذا ما استند مسلم اليوم إلى قيمة الوفاء بالعهد فلأنها قيمة عظيمة في ذاتها ، و ليست لأنها مقرراً إسلامياً ، لأنها في واقع الحال لم تكن كذلك ، و الإصرار على نسبة كل شأن رفيع وصلت إليه الإنسانية ، إلى الإسلام قبل أربعة عشر قرناً و ربع القرن ، فيه ظلم لواقعنا و ظلم للإسلام في آن معاً. إن القيم هي ما يتوافق عليه الضمير العام في زمن و مكان بذاته و مجتمع بخصوصيته و قد تسمو فيتوافق عليها الضمير العالمي كله ، أما الدين فهو أوامر و نواهي لا علاقة لها بمفهوم القيم ، فالقيمة تفترض حرية الاختيار بين بدائل مع فرز بينها و تجنيب لاختيار القيمة الأفضل ، بينما الدين فروض و شعائر يحسن احترامها بتركها لزمانها و ليست محل اختيار أو مفاضلة.

الحرب فعل سياسي ، و السياسة لا تحترم سوى المصالح ، و أعلن النبي (ص) ذلك بوضوح ، فهي عملية خداع للآخر ، ليس في السياسة عهود دائمة و لا قيماً إلا إذا وافقت المصلحة ، و لا بأس بنقض القيم في شئون السياسة و الحرب ، لكن إن نقضناها لأن ديننا أباح هذا النقض ، و جعل ما حدث بشأن هذه القيمة في تاريخنا

دينا كما قال قرضاوي نتعبد بها ، فهو ما يعني الخروج على معني القيم جميعاً و تدريب النفس و الروح على كسر القيم و تبرير ذلك الكسر بالخداع الشرعي المشروع.

هذا ما كان من الأحداث على واقع الأرض في زمن الدعوة ، و هذا ما كان من تعقيبنا الذي لا يكذب و لا يتجمل ، لكن يعترف بحقيقة الأحداث بهدوء ليتركها لزمانها دون تفعيلها في زماننا ، أما قرضاوي فقد عقب على الغزوة بقوله : " النبي سامح في الأحيان و قال لقريش اذهبوا فأنتم الطلقاء ، لكنه لم يقل ذلك لبني قريظة ، قبل كده سامحهم فجاؤا و تألبوا عليه و ألبوا العرب عليه ، فلم يكن لهم كلمة ". لكنه لا يذكر لنا كيف : (قبل كده سامحهم) و متى و في أى حادثة؟ ، و يرى **قرضاوي** أنهم لأنهم "لم يكن لهم كلمة" فقد حقت عليهم العقوبة بالإبادة الشاملة. لكن أخلاقيا أوحتى عسكريا ..... لماذا ؟ .. يقول قرضاوى لافض فوة وذبح كارهوة : "أحياناً يكون العفو مطلوباً ، و أحياناً يجرئ الظلمة على ظلمهم ، و البغاة على بغيهم / موقع القرضاوي في ٢٩ / ٢ / ٢٠٠٨".

و هو ما يعنى إمكانية تكرار الدرس بغض النظر عن قيمة **القرضاوي** العظمى في الوفاء بالعهد ، لأن العفو قد يؤدى إلى اجتراء المعفو عنهم على العافى ، و أحياناً يجرئ البغاة على تكرار بغيهم ، و لأنه (أحياناً) و لأنة (قد) ؟ فقد وجب الذبح الشرعى.

# الكذب في سبيل الله

**قبل أن تقرأ الموضوع :**

تكاثر عليّ السؤال : لماذا ترك سيد القمني اهتمامه بالقراءة الاجتماعية للتاريخ الديني في ثقافة الشرق الأوسط القديم ، و عمد إلى تكريس عمله في مواجهة التيار السلفي و الإسلام السياسي؟!

احتراماً للسؤال و السائلين أجيب :

أنه منذ عقد من الزمان ، طويت أوراق التاريخ القديم حيث مساحتى الرحبة في البحث العلمي ، و أغلقت باب التاريخ القديم و معه قسم الأساطير بمكتبتي ، بينما كان عالم الأساطير (الميثولوجي) و الانثروبولوجي و التاريخ القديم هو كل عشقي و متعتي ، و بعد العيش بحثاً راء الكشف التاريخي بمنهج بهيج يملؤك شغفاً كلما نظرت من خلاله إلى المجهول التاريخي ، منهج أو مناهج علوم تاريخ الاجتماع الديني ، ناهيك عن فلسفة الأديان و ما أدراك ما فلسفة الأديان ، هناك كانت متعتي سعادتي ، و من هناك عدت لقرائي بثمار الرحلة (رب الثورة ، قصة الخلق ، الأسطورة و التراث ، النبي موسى ، النبي إبراهيم ... إلخ) ، قبل أن يفرض الواقع شروطه على دماغي و روحي كما فرضها على غيري ، و حتى لا أكون مثقفاً خائناً لقضية وطنه مشغولاً بلذائذه البحثية الخاصة و نجاحاته الكشفية بين أقرانه ، كان لابد أن آخذ دوري في مواجهة المد السلفي الذي فرض نفسه على واقع بلادنا بكلة و كليلة و قديمه القاسي الجافي ، لأن المشاركة في صد هذه الهجمة كانت عندي لوناً من الجهاد الذي يتم تعريفه بأنه (فرض عين) ، بعد أن أصبح الوطن بتاريخه بناسه مخطوفاً لصالح طائفة متشددة صحراوية جافية ، لكن الجهاد الذي أعنيه ليس جهاداً في سبيل الآخرة ، فهذا شأن لا علم لي به فهو غيب مجهول لا يصح فيه أى قول إنساني ، لذلك أخترت الجهاد المفهوم بالنسبة لي ، و هو الجهاد في سبيل الدنيا مقابل جهادهم في سبيل الآخرة و نعيمها خمرها و حور عينها (يعني مرعة و قلة صنعة) ، هذا لون من الحياة لا يرغب فيه مثلي ، جهاد الانتحاري بموته ، أو الفقيه بفكره التحريضي ، يريد الثواب الشخصي على انجازه ، و قد تشتد أنانيته عن ذلك فيذهب شاباً في بداية الربيع لينتحر عن باب حسينية في العراق ، تاركاً طفلا أوطفلين و أرملة شابة و ربما أب أو أم عجوز ، طمعاً في مكان أرقي وأجزل فى النعم لنفسه ، غير عابئ بما سيحدث لأسرته و عائلته من بعده.

و ان تلك الرغائب الغرائزية المحققة للشهيد في الفراديس ، ليست عيباً إن طلبناها و سعينا إليها ، لذلك أباحها الدين للمجاهد في سبيل الدين مانحاً روحه الخلود و

جسده المتع و اللذائذ كلها ، فمصعب بن عمير عندما قتل أبيه الكافر ، فاز بعدة مراتب ، مرتبة الشهيد في نعيم الفردوس ، و مرتبة من نصر دينه و فضله على أهله و أبيه و صاحبته و بنيه ، و ذبح هذا الرحم في سبيل الله (قال له : خذها في سبيل الله) ، هو قاطع رحم و واصل دين ، و هنا رتبته العظمى فى الطاعات ، لأنه كان نموذج الطاعة للآيات المحرضة ضد كل مناهض للإسلام ، حتى لو كان من ذوى القربي ، حتى لو كان .... أبية !!!.

هذا جهاد يحض عليه **قرضاوي** و يقرظه **منتصر الزيات** و يمتدحه ، و هو يعلق على مشهد مجزرة زرقاوية بالعراق ، بإحدي الفضائيات ، بقوله : أن الذين ذبحوا الأطفال و النساء و الشيوخ في هذا الفيلم التسجيلي هم أسود الإسلام الذين يسمعون زئيرنا للعالم.

و كثيراً ما عجبت مع السؤال : إذا كان القرضاوي أو الزيات على يقين قاطع بمصير الشهيد المسلم كما هو يقيننا ، فلماذا يحرضون الشباب الذي لم يبدأ بعد ربيعه في الدنيا للاستشهاد ، و مازالت أمامه سنين ينفع فيها دينه و نفسه و وطنه ، لماذا لا يذهب الزيات بحزام ناسف إلى أينما شاء ، إلي دارفور ، أو الشيشان ، أو حتى إلي أمريكا ، أو إلى حيث ألقت ، لماذا لا يفعلها قرضاوي و هو رجل قد عب من نعيم الدنيا عباً ، و حاز مكانة اجتماعية رفيعة ، وأصبح عجوزاً شبعاناً ، رجله و القبر ، لماذا لا يختمها بالانتحار أو بالشهادة ضارباً للشباب المثال و القدوة ، و يضمن أن يتجاوز الله عن سيئاته في حق المسلمين ، و يسكنه الفراديس ، و يعطيه عوضاً عن حريمه في الدنيا ، ما يشاء و يشتهي من حور عين ، ويعيدة شابا منكاحا فحلا. لماذا لم يطلب من ولده الذي يعيش في أوروبا الطاغوتية أن يذهب لينتحر في ساحة الهايدبارك حيث خطاب الحريات الكفري.

هناك جهاد أخر ، هو جهاد في سبيل الدنيا و هو أيضاً في سبيل الدين من أجل اتباع الدين ، لكن مع اعتقاد راسخ أن الدين إنما جاء من أجل تيسير معاشنا لا لتعقيده ، و أنه راحة للنفس لا مصدراً للكراهية و رغبات التشفي الغرائزية ، و أنه جاء من أجلنا ، و ليس من أجل السماء فهي في غنى عن ذلك ، و أنه سبب للسعادة و ليس سبباً للكآبة ، و لا هو امتحان قاسي عسير تضيق بة الصدور، نحبه ونحترمة ،و لا نرهبه و لا نخافه ، نأخذ منه ما يصلح لدنيانا ولزماننا ، و نترك منه ما يعطلها لزمان دنياه و مكانه التاريخي.

و إذا كان الفقهاء قد اتفقوا على أن المقاصد الكلية للشريعة يقف على رأسها مصلحة الناس ، فإن الجهاد من أجل مصلحة الناس سيكون تحقيقاً للمقاصد الكلية للشريعة.

و مصلحة الناس المقصودة هي مصالحهم على هذه الأرض و في هذه الدنيا ، لذلك تركت دفاتري القديمة.

و قررت أن أجاهد و لكن من أجل مصالح أهلي و أولادي و شعبي و وطني ، من أجل الدنيا و بهجتها ، و من أجل الحياة لا من أجل الموت ، من أجل الوطن أولاً و بعد ذلك تأتي أى تراتبيات عربية أو إسلامية أو دولية. من أجل إنسان كريم يعيش في وطن عزيز. و الجهاد هنا هو جهاد سلمي يقوم على الحجة و البرهان ، و الانكشاف الشفاف الكامل على القارئ بحيث يستطيع أن يرى من كلماتك ما يجول بخاطرك و ضميرك ، و الصدق مع الذات و مع الناس و مع الموضوعات البحثية ، و التواضع أمام المعرفة ، فتكسب من القراء من يشكلون رصيداً لوطن يجمعنا على الحب ،و ليس من أجل دين أو طائفة أو عنصر أو مذهب يفرقنا طوائف و عناصر ، من أجل إعادة لم شمل مصر ، و هو غرض عظيم ، رأيت أن أشرف نفسي بالعمل من أجله مع العاملين فيه قبلي و معي و بعدي ، معتمداً على معرفتي بدروب و خفايا و مخابئ فقههم و طرائقهم و تاريخهم من فجره ، بحكم نشأتي في بيت لأب أزهري التعليم ، محافظ في تدينه ، حافظ لمحارم الدين ، و بحكم تخصصي الأكاديمي.

رأيت أني أستطيع بما لدي من معارف بالدين وبالعلم وعلومة ومناهجة ، أن أخوض هذا الجهاد ، رغم ما يسببة هذا اللون من البحث للنفس من كآبة و ألم و وجع و هلع ، فمنذ بدأت العمل في الشأن الإسلامي ، ما عاد البحث يسبب السعادة بقدر ما يثير مخاوف رهيبة لسيناريوهات محتملة ، انفتح القلم على الواقع فإذا بالبحث في التاريخ القديم و الأساطير ، هو لون من الترف العلمي الذي لا يحتمله هذا الواقع ، و من هنا بدأت رحلتي مع الكتابة الجدلية والبحثية مع ما يطرحه علينا السلفيون ، الذين أصبحوا الصوت الوحيد ، و مصدر المعرفة الوحيد ، و الرؤية التفسيرية الوحيدة الصواب للإسلام و عداها كافر ، حتى أمسى غير مطروح أمام المواطن في سوق الفكرة غير تلك الحقيقة الكاملة المطلقة ، يروجها إعلام الدولة نيابة عن الإخوان المسلمين ، و يشرع لها الأزهر فيمنع و يمنح حسب قدر فهم زبانيته القادمين من أكفان الماضي.

## إنهم يغشون القيم:

إذا كان ممكناً كسر قيمة (الوفاء بالعهد) لأهداف سياسية و دنيوية ، فهو أمر معتاد في الشأن السياسي و العسكري ، تفعله الدنيا كلها كلما تعارضت المصالح مع العهود بتطور الأحداث بعد العهد. لكن أن يكون هذا الكسر من الدين ، و يتم في سبيل الله ، فإنه يصبح بالإمكان كسر كل القيم في سبيل الله ، و مع تعدد الفرق

الإسلامية و المذاهب ، تتعدد الطرق لهذا السبيل ، حتى يكاد تفسير شخص واحد تفسيراً للدين كله ، و يمكنه تفعيل هذا التكسير للقيم من أجل مصالحه الذاتية الشخصية ، بحسبانه مسلما الحق كله في جانبه ؛ و بتفعيل ذلك و توزيعه على مساحة الكاسرين لقيمة الوفاء بالعهد في سبيل الله ، لن تجد على أرض الواقع شيئاً بالمرة اسمه الوفاء بالعهد. و عليك دوماً أن تتربص الجميع حولك مهما كتبت من عهود ، فالكل جاهز لنقض عهده في سبيل الله. لهذا أصبح حال الأخلاق في بلادنا ما نراه من انهيار قيمي حاد و مخيف ، رغم انتشار الحجاب و النقاب و اللحية و الزبيبة في كل شارع و حارة ، و القرآن يغمرنا و الحديث يسمرنا ، و الشريعة بالمادة الدستورية الثانية تظللنا ، و البسملة قبل كل كسر لقيمة باب مشروع في سبيل الله تتبعها الحوقلة. وإعمالا لذلك وضع فقهنا الأصول لعدم احترام العهود فى بنود هى كالآتى:

- لا تزيد مدة المصالحة عن أربعة أشهر ، و إذا زادت لضرورات فلا تجوز الزيادة عن عشر سنوات ، فلابد أن تكون المصالحة معلومة محددة **لأن تركها من غير تقدير يفضي إلى ترك فريضة الجهاد.**
- تكون المهادنة و المصالحة لضعف طرأ بالمسلمين ، لذلك تحدد مدتها **إلى أن يزول سبب الضعف.**
- إذا كان المسلمون في حال ضعف رخص لهم في الموالاة إذا خافوهم ، و المراد بتلك المولاة المعاشرة الظاهرة ، **و القلب مطمئن بالعداوة و البغضاء و انتظار زوال المانع.**
- الدعوة إلى السلم بمعنى ترك الحرب نهائياً كفر بالله مخرج عن الملة لأن الأصل في العلاقة بين المسلمين و الكافرين هو القتال و ان الاستثناء فيه هو السلم في هدنة أو صلحاً مؤقتاً و لا يتم اللجوء لهذا الاستثناء **إلا لضرورة عجز أو ضعف أو نحوه.**

مالك ٢٨٩/١ ، الطبري و ابن كثير و القرطبي في تفسير آية ٣٥ من سورة محمد ، و آية ٥ من سورة التوبة ، و آية ٢٨ من سورة آل عمران.

تعالوا نترك الفقة القديم إلى الفقة المعاصر ، نستمع إلى الرجال الهامات و العلامات ذوي القامات الأبرز في الهيئات الإسلامية المعاصرة ، الذين لاشك يمثلون القيم كافضل ماتكون النماذج. منهم مثلاً الدكتور **أحمد الريسوني** ، الخبير بمجمع الفقه الإسلامي الدولي ، الذي يري أننا لسنا بحاجة إلى الديموقراطية كما تعرفها الدنيا ، لأن لدينا الشورى التي هي عنده أهم و أعم من الديموقراطية ، و " أن معظم الدول الإسلامية قد أصبحت لها مؤسسات شورية ، إضافة للمجامع الفقهية الدولية " ، هذا

بينما يرى "الديموقراطية نظام أو تنظيم إداري لا يمكن أن نحل به مشاكلنا.. الديموقراطية فيها عيوب معروفة .. لقد **جردت من الأخلاق** .. و نحن إذا مارسنا الديموقراطية فيجب أن نصحح الديموقراطية ، فتكون ديموقراطية الأخلاق ، ديموقراطية الصدق لا ديموقراطية الكذب ، ديموقراطية الإخلاص لا ديمقراطية الغش ، ديمقراطية الوضوح و الصراحة ، لا ديموقراطية التلاعب و التناور/برنامج الشريعة الحياة/الجزيرة/حلقة رأي الأكثرية في الشريعة الإسلامية ". و هو الكلام المؤدي في النهاية إلى تحريض المسلمين ضد الديموقراطية لأنها تتنافي و قيمنا و أخلاقنا !!

و قيمنا (قيمنا وحدنا فيما يبدو) هي مثل الصدق و الإخلاص الوضوح و الصراحة ... إلخ من جماليات أخلاقية راقية ، نتحدث عنها لكنها غير موجودة بالفعل في أرضنا ، حتى أن ناصحنا الأمين الدكتور الريسوني قد مارس في عبارته القصيرة تلك ، كل ما هو كذب و عدم وفاء مع انعدام تام للصراحة و الوضوح ، فما بالك برجل الشارع المسلم الاعتيادي إذا كان هذا شيخه الفقيه الخبير؟!

نعم لقيم المصارحة و المكاشفة و المصالحة ، لكن مشايخنا لا يعنون ما يقولون. نعم لإعادة قراءة تاريخنا قراءة علمية منصفة لا تغالي و لا تفرط و لا تبالغ و لا تبخس ، تقرأه كما كان ، على أن نقرأه بعقلين. عقل زمانه لنحترم توافقه مع زمانه ، و عقل زماننا الذي لا يصلح معه ظروف مكان و زمان سحيقين في القدم و البدائية. نعم لدرس تاريخ الإسلام ، ليس بقصد اجترار و إعادة مضغ أو فخر برجال ليسوا منا بل كانوا لبلادنا فاتحين و لعرضنا منتهكين ولأموالنا ناهبين ولأوطاننا محتلين، بل لنحدد موقفنا من أنفسنا ، و من الدنيا عبر هذا التاريخ ، لنعيد تأسيس حاضرنا على أعمدة راسخة تحددت فيها المفاهيم و وضحت المصطلحات من أجل فلسفة قيم تليق بزماننا الذي يحتاج لفعلنا و وجودنا فيه ، بأدواته و أساليبه المحدثة ، ليكون لنا مكان في الزمن الآتي ، بعد أن أصبحنا- شئنا أم أبينا - في معظمنا شعباً مسلماً يتحدث العربية.

إن الوهابية السعودية عندما أعادت فتح البلدان من حولها و بخاصة مصر ، جاءتنا بدين جديد لا يعرف المذاهب المتعددة و الآراء المختلفة رحمة بالمسلمين ، دين هو وحده المؤمن بالله دون بقية المسلمين ، هو وحده الخلف الصالح للسلف الصالح ، هو إنسان وديع مسالم ، هو خلف السلف الذي فتح بلادنا ليخرجنا من الظلمات إلى النور ، و لا تعلم هنا هل كان من ضرورات هذا الانتقال نحو النور ، و من لوازمه ، هتك أعراضنا ونكاح نسائنا و ذل رجالنا و استرقاق أطفالنا و نهب أموالنا؟ ، مع القتل في شكله المفرط ، ثم الاستيطان في البلاد الموطوءة بالفتح؟

المسألة هنا تتعلق بالقيم ، والقيم تتفاوت بتفاوت الجتمعات على سلم القيم ،لأن هتك عرض المهزوم و إذلاله كان من فضائل القيم البدوية و من مكارمها ، لإرهاب من يليهم من بلدان سلفاً ، اضرب المربوط يخاف السايب ، استباحة دير ياسين أدت لهروب الفلسطينيين من بلادهم أمام اليهود ، و مذبحة قريظة بالحجاز أدت إلى رعب القبائل الأخرى و وفودها للمدينة تعلن الولاء ، السؤال مرة أخرى ، هل كان ضرورياً لنشر دين الله أن تسبي جداتنا لتوزع حتى وصلت سبايانا لذة لأهل اليمن ، بينما كانت جيوش المسلمين لا تزال عند بلهيب بالدلتا. هل كان من لزوم نشر الدين أن تخطفوا حريم بيت جدي لتنكحوهم في أرضكم المقدسة؟ لقد كان الفتح و النهب و النكح و الإفراط في القتل عوامل تمكين حقيقية للقوة الطالعة ، و لم يكن الدين هو هدف هذا الفتح و لا مبتغاه.

هؤلاء القوم و أسلافهم هم سدنة البيت الأموي السني حتى اليوم ، و كما فتحوا بلادنا و نهبوها و أخرجوها من دائرة الفعل الحضاري ، هم و سلفهم من كانوا الحجر الكؤود في حياة نبيهم (ص) ، و بعد موته ظلت النقمة على بيت النبي الهاشمي ، ظل بنوا أمية يرددون شعر ابن الزبعري بلسان يزيد بن معاوية :

**لعبت هاشم بالنبوة فلا..... مَلَك جاء و لا وحي نزل**

و عن هذا اليقين قضوا على آل بيت النبوة دون أى شعور بالإثم بل أبادوهم من الوجود حتى الصغار الرضع من البذرة الطاهرة تم ذبحهم ، و سبوا نساء هذا البيت الطاهر و صادروا أموالهم و مثلوا بجثامينهم ، وهتكوا عرض بنات الصحابة ونساءهم عندما استباحوا مدينة رسول الله ، و دمروا الكعبة و حرقوها رمياً بالمنجنيق ، و تخلصوا من مخطوطات القرآن العديدة التي حرص على تدوينها صحابة أجلاء كعبد الله بن أبي و كعبداللة بن مسعود و الإمام علي .. إلخ ، فأحرقوا صحائف القرآن ليدونوا المصحف العثماني تحت إشرافهم وحدهم ، و عندما اعترض كبار الصحابة على ما يفعلون بكتاب الله العزيز نكل بهم أشد التنكيل ، منهم من أمر الخليفة بضرب أضلاعه بالأرض حتى تهشمت ، و منهم من ضربه الخليفة بنفسه (بالشلوت) فأصابه الفتق ، و الروايات كثير ، و كلها مخجل محزن مؤسف.

**هؤلاء القوم باعو الدين مبكرين للسلطان ، و لا تعلم كيف يصدقهم المسلمون اليوم و يتبعونهم** ، في خيانة كارثية للإسلام و نبيه رغم أن الجميع يعلم بما حدث ، و أن الخلف المشيخي السلطاني ، أو الإمامي الخليفي ، يحدثنا اليوم بلسان ذلك السلف العربي الذي ركب الإسلام ، في تواطؤ فضائحي يشير إلى خلل عميق في معايير القيم لدينا.

المصيبة أن هؤلاء في نظر العوام من يمثلون الإسلام ، بينما يصبح قدحنا فيهم كفران بالإسلام.

أترون إلى أين وصلوا بنا؟ حتي قبلنا الخديعة في ديننا و تواطأنا معهم ومعها ، في فعل فضائحي علني ، و عقد نكاح باطل غير شرعي بين المسلمين و مشايخهم ، لم يقم على الكتاب و السنة ، بل على خيانة الكتاب و السنة علناً جهاراً نهاراً بياناً ، ليس فيه من الشريعة سوى الإشهار الفاضح.

يقول الرجل الصادق الدكتور الريسوني إن الشورى مثل الديموقراطية في مسألة ترجيح رأي الأغلبية على رأي الأقلية ، لأنها "مسألة فطرية .. و الإسلام فطري يقبل الأمور الفطرية و يبني عليها و يؤسس شريعته". و ذلك لأن "الديموقراطية جزء من الشورى .. هي أداة و وسيلة تنظيمية ، أما الشورى فعقيدة و خلق و سلوك و ثقافة./نفس الحلقة".

إن محاولات تلبيس الإسلام بمفاهيم و مصطلحات بنت زماننا ، كثيراً ما يضر بالدنيا و بالدين ، ناهيك عن كونه يشككنا في الأغراض الحقيقية لفقهاء زماننا إذ يكذبون علينا هكذا بشديد الخفة و البساطة دون أن يرف لهم جفن.

السيد الدكتور يعلم أن الإسلام على المستوى السياسي لا يعرف شيئاً إسمه أقلية أو أكثرية ، أنت مسلم أو غير مسلم ، و ليس هناك وسط بينهما و لا درجات ، و الأقلية المسلمة كانت خير أمة أخرجت للناس دون الأكثرية في كل الدنيا ، تاريخنا السياسي الإسلامي لا يعرف إقلية و أكثرية ، لا يعرف حكومة و معارضة ، فقط يعرف إجماعاً مطلقاً عادة ما يلتقي بالوساطة المشيخية مع إرادة الحاكم ، و عداه لايسمي معارضة و لا أقلية ، إنما ردة بالخروج على الإجماع يكفر بها صاحبها و يستحق القتل ذبحاً.

الإسلام لا يعرف منافسة سياسية على السلطة بين الأكثرية و الأقلية ، لأن الحديث المنسوب للنبي يقول : "**من خرج يدعو لنفسه أو لغيره و علي الناس إمام فعليه لعنة الله فاقتلوه**" ، و "**إذا بويع لخليفين فاقتلوا أحدهما**". الحل البدوي هو القتل فهو لا يترك المهزوم معارضاً ، الصراع صفري دوماً : إما أنا أو أنت**!** و لا وسط**!** ، قابيل عندما رفض الرب خضرواته التي قدمها له قربان ، و استطاب اللحم قربان أخيه هابيل ، لم يحاول أن يسأل نفسه عن سبب رفض الرب لقربانه ، و لم يحاول أن يطرح على نفسه وسائل أخري قد يقبلها الرب فيجرب ويحاول مرة تلو اخرى حتى يحقق مرادة ، إنما علي الفورقتل ربع الإنسانية حينذاك ممثلة في أخيه هابيل ، قصة بدوية صفرية الصراع ، لا حل عندها للمشاكل سوى ازالة العقبات بالقتل ،

نتعلمها في الطفولة لتصبح لنا مثلاً و منهجاً عند اليفوع. كل شئ أو لا شئ ، أنا أو أنت!

عرب إسلامنا لم يعرفوا في جزيرتهم المتبدية شيئاً اسمه انتخابات ، فالدكتور الريسوني يشرح لنا الفرق العظيم بين ديموقراطية الغرب و شوري الإسلام بقوله : "الشورى حسب أحد الفقهاء المالكية هي : على الأمير أو السلطان أن يستشير قادة الجند فيما يخص الحرب و القتال و السلم ، و ما إلى ذلك ، و أن يستشير وجوه الناس فى مصالح الناس ، و أن يستشير الكتاب في مسائل الإدارة. . إلخ/الحلقة نفسها".

و هكذا نجد الأمير أو السلطان قد تسلطن أصلاً دون أى دور لهذا الشيئى المسمى شورى في سلطنته ، و معلوم أن البيعة شقيقة الشورى في النظام السياسي الإسلامي ، هي عقد إذعان و إعلان ولاء للنظام ،الذي تسلطن مسبقاً و جلس يطلب من المسلمين الاعتراف بسلطانه ، كذلك كانت معظم الولايات في تاريخنا تقع تحت بند خلافة المتغلب ، أى الذي غلب الناس بسيفه و عسكره وشوكتة.

و هكذا تصبح البيعة و الشوري عملية إكساب شرعية لنظام غير شرعي و ليست العكس ، و لا علاقة لها برأى أغلبية و لا أقلية ، و لا تعرف شيئاً اسمه الترشيح أو المنافسة أو الانتخاب أو حتى الاختراع العروبي الثوري المسمي استفتاء.

و بعد أن يتسلطن المتغلب و يأخذ الشرعية يسوق الناس لبيعته بالزواجير وهو ماحدث فى أخذ بيعة الإمام على والهاشميين لأبى بكر قهرا، ...."من قهر الناس بجنده و تغلب عليهم بشوكته ، لا يبيت المسلم مسلماً و هو لا يراه أميراً له" ، هذا حديث آخر منسوب للنبي ما أنزل الله به من سلطان لشرعنة اللاشرعية ، فقط بحجة وأد الفتنة.

و بعدما يتسلطن المتغلب و يحشر الناس لبيعته ، و يأخذ الشرعية بالرضى الكهنوتي ، قد يستشير أهل العلم في الدين ، و قادة الجند في القتال ، و قد يستشير الكتاب في الإدارة. الدكتور الريسوني لكثرة ما طال به العهد وسط كتب التراث تحول هو نفسه إلى تراث مُعلب ، لازال أسلوب الحكم عنده هو سلطة واحدة و خليفة واحد يدير كل شئون الإمبراطورية ، لكنة خليفة ديمقراطى يشاور وجهاء سلطنته في كل شأن.

و يبقي السؤال يحيرنا حول معنى لقب دكتور و لقب مستشار و لقب فقيه و كلها صفات السيد الريسوني. و وجه الحيرة قوله مع كل هذه الألقاب السنية أن الأخذ برأى الأغلبية مسألة فطرية و أن الإسلام مع هذا المبدأ لأنه دين الفطرة. بينما ما

حدث في تاريخنا أن المستبد الحاكم ممثل الأغلبية بحكم شرعيته الدينية ، ما كان يسمح أصلاً بظهور أقلية أو معارضة ، و حتى عندما كانت تثبت تلك المعارضة وجودها ، فذلك لأنها صارت في موطنها أكثرية كالمذهب الشيعي في إيران و العراق مثلاً. أو ليشير لنا الدكتور في تاريخنا عن هذه المعاني ، فقط هو يعتمد الشورى ، و هو شأن يعني طلب النصيحة و لا علاقة له بالديموقراطية كمنظومة سياسية حقوقية ، هو شئ أقرب إلى المهلبية منه إلى الديموقراطية.

و لا يجد الفقيه الريسوني حرجاً عندما يأخذ برأي الأغلبية ليؤسس عليها شرعيته؟! أى حديث هذا؟ و أي عبث ذاك؟ إذا كان القانون الذي سيحكمنا هو الشريعة ، و الشريعة التى هى من عند الله ، و لم يستشرنا ربنا عندما وضعها لنا ولا أخذ رأى أحد فيها ولاحتى أنبيائة ، فما المعول علي الأغلبية هنا؟ ماذا سيكون دورها؟ و كيف سيكون هذا الدور مع شريعة هي أوامر و نواهي لا مجال فيها لرأي و لا استفتاء و لا أقلية و لا أكثرية ، فلا اجتهاد مع نص و لا إنكار لمعلوم من الدين بالضرورة. ومن ثم لن يبقي من الديموقراطية شئ ، إنما تبقى الشورى التي تلائم ظروفنا و ديننا ، سيستشيرونا إن شاء الله في الشئون التي تخرج عن دائرة الدين ، فإذا كانوا قبل أن يحكموا جعلوا كل شئ داخل دائرة الدين ، فما هو شأنهم يوم يركبون الكراسي الكبيرة؟

و المعلوم أن الإسلام قد بدأ مع مسلمين أقلية فانحاز للأقلية مبكراً ، و دعمها و خصها بالخير و ذم الأكثرية و دمغها بالشر ، "و إن تطع أكثر من في الأرض يضلوك" ، "و لن تغني عنكم فئتكم شيئاً و لو كثرت ..." (١٩/الأنفال) ، "قل لا يستوي الخبيث و الطيب و لو أعجبك كثرة الخبث" (١٠٠/المائدة) ، "و يوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلن تغني عنكم شيئا" (٢٥/التوبة) ، "منهم أمة مقتصدة و كثير منهم ساء ما يعملون" (٦٦ ؟ المائدة) ، "و فضلناهم على كثير مما خلقنا تفضيلا" (٧٠/الإسراء) ، "و قالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين" (١٥/النمل) ، "فمنهم مهتد و كثير منهم فاسقون" (٢٦/الحديد) ، "ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون" (٣٢/المائدة) ، "و ترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم و العدوان" (٦٢/المائدة) ، "و إن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم" (١١٩/الأنعام) ، "و لقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن و الإنس" (١٧٩/الأعراف) ، "إن كثيراً من الأحبار و الرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل" (٣٤/التوبة) ، "و إن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون" (٩٢/يونس) ، "و إن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون" (٨/الروم) ، "كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله" (٢٤٩/البقرة) ، "إن الله لذو فضل على الناس لكن أكثر الناس لا يشكرون" (٢٤٣/البقرة) ، "و لكن أكثرالناس لا يؤمنون" (١/الرعد) ، "فأبي أكثر الناس إلا

كفورا" (٨٩/الاسراء) ، "ذلك الدين القيم و لكن أكثر الناس لا يعلمون" (٣٠/الروم) ، "و ما أنزل إلينا من قبل و إن أكثركم فاسقون" (٥٩/المائدة) ، "نبذة فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون" (١٠٠/البقرة) ، "منهم المؤمنون و أكثرهم الفاسقون .." (١١٠/آل عمران ).

رغم تحول المسلمين إلى أكثرية فيما بعد ، فإنها لازالت تقوم بدور الأقلية المطهرة كالشعرة البيضاء في الثور الأسود ، و هي التي اختارها الله خير الأمم ، و مهمتهم تحويل هذه الكثرة المخالفة إلى الإسلام ، فالأقلية هي الطيبة المتسامحة التي يقع عليها الاضطهاد و عبء الدعوة و الجهاد لأنها الصواب المسلم. و الحقيقة أنها ليست أكثرية و لا أقلية بما نفهمه منها الآن ، و لا علاقة لها بمعنى الأقلية و الأكثرية السياسية ، هي شأن ديني طائفي خالص ، و عندما كان الشأن واضحاً كشأن سياسي تماماً زمن الرعيل الأول ، لم يحدث أن تم تفعيل مبدأ الأكثرية ، فقد اختار أبو بكر الحرب على أهل الردة رغم معارضة أكثرية الصحابة و على رأسهم عمر ، و اختار عمر عدم الخروج على رأس الجيوش و أناب عنه قواد الفتوح ، رغم استشارته لعشرة من الصحابة فقال تسعة منهم بوجوب خروجة على رأس جيوش المسلمين ، و واحد فقط (عبد الرحمن بن عوف) قال ببقائه في المدينة ، فأخذ برأي الواحد. و الأمثلة أكثر من الحصر.

هناك لون أخر من الكذب لا يلجأ لتلبيس المفاهيم ، إنما هو يكذب بشكل (قارح) على نفسه و علي تراثه و علي المسلمين المفترض أنهم يأمنونه على دينهم و أخلاقهم.

الدكتور **فيصل مولوي** الأمين العام للجماعة الإسلامية الدولية ، مشغول مثل كل زملائه فقهاء أو دعاه أو جماعات بإقامة دولة إسلامية معاصرة ، فهو يؤمن بالمعاصرة كحل لتخلفنا وضعفنا ، لكنه لا يريد أسباب القوة المعاصرة ، من عصرنا ، يريدها من تراثنا ، من عصر مضي عليه أكثر من أربعة عشر قرناً ، لذلك يفرض على هذا التراث مفاهيم لم يعرفها العالم إلا قبل قرنين أو ثلاثة من الزمان ، لا لشئ ، إلا لحشر الإسلام في كل شئ.

يواجه مولوي هنا معضلة وجود مواطنين غير مسلمين في الدول المسماة إسلامية ، و أن الإسلام يفرض عليهم الجزية ، و أن الجزية انتقاص من المواطنة ،فالمواطن يدفع ضريبة الجزية بسبب اختياره ديناً غير ما ارتضته الدولة لنفسها. و بسبيل إثبات حداثة الفكر الإسلامي السياسي ، يتنكر مولوي عن قصد لمعلوم من الدين بالضرورة فيقول: "ليس هناك مبرر لأن تفرض الجزية على هؤلاء ، لأن الجزية تفرض بعد حرب و لا تفرض بعد اتفاق ، و مع ذلك حتى بعد الحرب ، ربما

يحصل صلح بين المسلمين و غير المسلمين و لا تكون فيه جزية ، و قد حصل هذا أيام عمر بن الخطاب (رض) عندما أراد المسلمون أن يفتحوا بلاد النوبة و لم ينجحوا فيها ، فصالحوا أهلها بغير جزية/المواطنة فى الفقه السياسي الإسلامي/الشريعة و الحياة/الجزيرة"

الدكتور مولوي يقوم بدور المحلل بين المطلقين ثلاثاً في بينونة كبرى ، فينكر المعلوم طوال تاريخ الإمبراطورية الإسلامية و المعلوم من الشرع و الدين بالضرورة ، لأن الجزية مقصود منها الإذلال و الصغار (وهم صاغرون) ، وهي بمفاهيم اليوم الحقوقية تعد انتقاصاً من حقوق المواطنة بسبب دين دون دين.

لو مد مولوي الحبل على استقامته و أنكر و استنكر الجزية التاريخية و الشرعية ، بحسبانها ما كانت تليق حتى بزمانها حتى نقبلها في زماننا ، حسب المقاييس الأحلاقية ، بل تتناقض مع القيم الدينية الدعوية ، فإذا كان المقصود من الجهاد و الفتوحات نشر الإسلام ، فلماذا قبل المسلمون بأخذ الجزية بغض النظر عن دين دافعها ، بغض النظر عن دينة حتى لوعبد بقرة ، فهل كانت الدعوة في سبيل الله أم في سبيل جمع الأموال؟

و قد أرسل النبى فيما نؤمن داعياً لا جابياً ، و كان بإمكان الريسوني وضع الحدث في زمنه و تاريخه للخروج بأسبابه الموضوعية ، والاعتراف المتواضع أنها كانت أسباب محلية لا علاقة لها بظرفنا اليوم.

لو فعل ذلك لقدرنا و فهمنا و بصمنا بالعشرة ، لكنها المنطقة الملغومة التي لا يريدون لا الخوض فيها ، ولا ترك غيرهم يفكك ألغامها ، و يسمحون لأنفسهم بإنكار معلوم من الدين بالضرورة ، و يرمون من يخاطرون بتفكيك تلك الألغام بالضلال و الزندقة و الكفران. لذلك يلجأون للمداورة و التضليل و التجميل في كذب مفضوح لا يليق بالدعاة الكبار.

مولوي ينكر المعلوم بالضرورة ليس بسند من حديث و لا لآيات و لا فقه و لا لحالة متكررة في التاريخ ، إنما يذهب يبحث و ينقب في تاريخ الغزو العربي لدول الحضارات التي شاء جظها العاثر أن تجاور جزيرة العرب ، فلا يجد سوى حالة يتيمة لم يتمكن فيها العرب الغزاة من احتلال النوبة المصرية ، و أصاب الإجهاد الشديد الطرفين ، و سجل النوبيون بذلك بطولة غير مسبوقة لأنهم كانوا يحسنون الرمي الدقيق بما يصيب مباشرة عيون الأعداء ، لذلك سماهم العرب **(رُماة الحدق)**. و انتهي الموقف بشبه انتصار للعرب فرضوا بموجبه على أهل النوبة أن يرسلوا للعرب عدداً منهم سنوياً ، ليستعبدوا للعرب بعد أن كانوا أحراراً في بلادهم.

هذه هي الحكاية ، و يعلمها مولوي جيداً و إلا ما رصدها وسط تاريخنا الهائل كماً و كيفاً ليجعل منها تكأة لتبرير محاولته كمحلل للطلاق البائن بالجزية بين المسلمين و غير المسلمين ، و هي لاشك محاولة مشكورة ، لكنها تلفيقية لا تحسم الأمر بقدر ما تتحايل عليه. إضافة إلى اعتمادها الكذب ، **فما أحوجنا لفضيلة الصدق إذن !!**

و هو إذ ينكر ضرورة الجزية القرآنية لم يتمكن من اقتحام العقبة الكؤد العمرية (عهد الذمة – أو عهد الذلة) ، فإذ به يقول : " المشكلة في مصطلح أهل الذمة عند كثير من الناس ، هي مشكلة الجزية ، و ليست مشكلة أهل الذمة ، لأن الذمة هي عقد ، و العقد يتم بالتراضي بين المسلمبن و بين انسان غير مسلم يريد أن يعيش معهم ، أو هو أصلا يعيش معهم ، هم أسلموا و هو بقي على دينه ، و حصل أن من أسلموا صاروا أكثرية ، و أرادوا أن يحتكموا إلى شريعة الله ، فهذا عقد الذمة يتم بالتراضي على كل بنوده ، لكن ما حصل أن عقد الذمة عندنا يكون بعد حرب ، و الحرب عادة يبدأها غير المسلمين ، و المسلمون فيها مدافعون عندما خاضوا هذه الحروب ، و انتصروا و قضوا على هؤلاء بدفع الجزية علامة خضوعهم لهذا المجتمع الجديد ليس أكثر . . لذلك فالأهم في عهد الذمة هو خضوع هذا المواطن للأحكام التشريعية الدنيوية العامة للدولة ، فإذا أخذت هذه الأحكام من الشريعة الإسلامية أو غيرها ، فعليه أن يخضع لها ، لأن هذا هو معني المواطنة. المسلم الآن في أوروبا يخضع للقوانين العامة ، كذلك على المسيحي في بلاد المسلمين أن يخضع للقوانين العامة".

و هكذا غرق الرجل في مستنقع الكذب بكله و كليله حتى أنفة، و هو عالم بما يفعل ، فأي جلل أصابنا في مشايخنا و قاماتنا الطوال؟!

مولوي الأمين العام لمسلمي المشرقين ومسلمى المغربين ، يري أن غير المسلمين في الدولة الإسلامية المرتقبة لن يدفعوا الجزية ، في مجاملة و تنازل لطيف لا يملكه لأنه منكر لمعلوم ضروري من الإسلام ، لن يقره زملاؤه عليه عندما يجد الجد و ينتفي الهزل ، و في مقابل هذا التنازل الباهت غير صادق النوايا ، على غير المسلمين أن يقبلوا بعهد الذمة ، و يعرفه بأنه عقد يتم بالتراضي بين المسلمين و غير المسلمين في بلد واحد. ليس هذا فقط ، بل عليهم قبول تطبيق الشريعة الإسلامية و خضوعهم لها لأن الشريعة في الدولة المرتقبة ستكون قوانين عامة للدولة ، و أنه كما يخضع المسلم القاطن ببلاد الغرب لقوانينهم العامة ، كذلك على المسيحي في بلادنا أن يخضع لقوانينا العامة كما لو كان هؤلاء مغتربين عندنا كما بعضنا مغترب في بلاد الغرب. و بعد أن يخدعنا بكذبة أن عقد الذمة يتم بالتراضي ، يعود ليعترف أن التاريخ الإسلامي كله لم يعرف أى عهود للذمة كتبت سلماً إنما

كانت دوماً إثر حروب ضروس ، و بالطبع وفق شروط المنتصر ، و ذلك المنتصر كان الفاتح الإسلامي ، و تلك الشروط مجرد تكرارها هنا مخزي و محزن و مخجل.

أمثلة سريعة لبعض بنود عقد الذمة العمري مع مسيحي فلسطين : أن يكون لهم زياً خاصاً حتى لا يتشبهوا بالمسلمين و حتى يعرفهم المسلمون من زيهم ، مع شد زنا على أوساطهم ، و ألا يعلوا ببنيانهم أعلى من المسلمين ، و لا يسمعونا صوت نواقيسهم ، و لا تلاوة كتبهم و لا قولهم في المسيح ، و لا يجاهرون بالخمر و الصلبان و الخنازير ، و أن يدفنوا موتاهم بعيداً عن مقابر المسلمين و لا يرفعوا أصواتهم على موتاهم ، و يمنعوا من ركوب الخيل لأنه مركب كريم شريف ، و يسمح لهم بركوب الحمير دون برذعة إنما على الأكف (الليف الخشن) و يكون الركوب من جانب واحد ، فإن صادف مسلماً ماشياً عليه النزول عن حماره و اللجوء إلى أضيق الطريق ليفسحه للمسلم ..... إلخ .... ألخ ".

و مع التعامي التام و التغافل المقصود عن تلك البنود يستمر مولوي يقول : " إنه من أجل المحافظة على كرامة هؤلاء سموا أهل ذمة ، كلمة ذمة ليست كلمة تعني شئ من الإذلال ، أو تعني شيئاً من تجاوز الحقوق ، بالعكس ، تعني أن هذا الإنسان في ذمتي ، يعني أنا مسؤول أمام الله أن أحافظ عليه و علي حقوقه و علي كرامته و على المساواة بينه و بين جميع الناس . . و لدينا الحادثة المشهورة عن الغلام القبطي الذي ضربه ابن عمرو بن العاص . . **عاد و هو يشعر بالمساواة و لم يدخل في دين الله ، لأن الإسلام تقوم شريعته أساساً على المساواة في المواطنة ".**

كان علي السيد الدكتور أن يقول أن لديه عهداً جديداً للذمة ، لأن ما يقول لا علاقة له بالمرة بعهد الذمة العمري المشهور ، و لا بفقه الأموال و الحسبة الذي يدرسه أبناؤنا في أزهرنا الميمون ، كان عليه أن يقول : هذا عهد ذمة جديد نتعهد به لغير المسلمين في دولتنا الإسلامية المرتقبة ، و حتى لا ينصرف الذهن لأي خديعة متربصة بنا ، عليه أيضاً أن يعلن إدانته لعهد الذمة العمري و كل العهود الشبيهة به في تاريخنا الإسلامي.

الأشد سوءاً و نكاية في كل القيم ، أن يكذب المحترم بفداحة و يردد كذبة تاريخية قد آن أوان مراجعتها و الاعتذار التاريخي العلني الدولى عنها و إدانتها. و توقيع عقولة على من يقول بها ، بالضبط كما فعلت دول أوروبا بعقوبة منكر الهولوكست ، كذبة يرددها المشايخ جميعاً بلا استثناء ، تدين المشيخة و الدين و هيبة رجل الدين.

ألا ترون الرجل الصادق المؤمن يقول : "عقد الذمة عندنا يكون بعد حرب" ، و قال قبلها أنه يتم بالتراضي و القبول السلمي بين الطرفين ، لكنه يعلم أن أحداث التاريخ الإسلامي لا تقول ذلك ، فيبرر عقد الذمة القهري الذي تم إثر شن الحروب على البلاد المحيطة بالجزيرة ، باستطراده المفزع الصادم ، "و الحرب عادة كان يبدؤها غير المسلمين ، و المسلمون كانوا فيها مدافعين عندما خاضوا هذه الحروب" ، و لما انتصروا فرضوا الجزية على المهزومين علامة الخضوع ، و في رأيه يمكن اسبدال هذه العلامة (الجزية) للخضوع بعلامة حداثية متحضرة ، هي الخضوع للقوانين العامة للدولة ، التي هي عنده الشريعة الإسلامية ، فيكونوا قد استجاروا من الرمضاء بجهنم.

هل يشير لنا الدكتور و كل الدكاترة و الدعاة ذوي الوجاهة و المناصب علماء الأمة ، إلى الحادثة التي أعتدت فيها مصر على الجزيرة ، أوالعدوان الذى ارتكبة أهل العراق أو فلسطين أو الشام أو افريقيا حتى الأطلنطي ، أو كل بلاد ستان حتى الصين و كيف كانت حملاتهم العسكرية على نجود الحجاز الفاضلة و مدنه المقدسة ، و متى حدث هذا؟ أم ان حرب الفتوح والغزو كانت حرباً استباقية قام بها العرب ، لا تقوم على حشد المعلومات عن العدو ، إنما تقوم على قراءة نياته العدوانية؟ و لماذا كانت نيات كل تلك البلاد المفتوحة قريبة وبعيدة هي مهاجمة المسلمين بالحجاز، و هو مالم يحدث و لا مرة واحدة؟ فجاء العربي و احتل البلاد و أسر العباد واستعبد الأطفال و نهب الحلال و نكح النساء ، كرد فعل على قراءة النوايا بهجوم مفترض كانوا سيقومون به على المسلمين؟

إن هذه الرؤوس و الهامات لا حل لها ، و لا حل لديها ، و لو كان لديهم حلول لحلوا من زمان ، ألف و اربعمائة سنة يحمون الدين و يجلسون على أكتافنا يبررون كل المظالم و لم يقدموا يوماً حلاً ، حتى بات العالم كله يطالبنا بالإصلاح ، فهل تراهم و حالهم هذا بقادرين على إصلاح أى شئ؟

الرجل يطلب من غير المسلمين في بلادنا الخضوع للشريعة كما يخضع المسلم المهاجر فى الغرب للقوانين العامة هناك ، لأن قانوننا العام هو الشريعة؟

أترون دكتوراً يعرف بسائط المنهج العلمي يقول كلاماً مثل هذا؟ إن الدكتور يعرف يقيناً معنى القانون العام ، فهو الذي ترتضيه كل أطياف و ملل و ألوان و نحل المجتمع في عقد اجتماعي سلمي ، لذلك يعبر عن المصالح المشتركة لجميع المواطنين على ألوانهم دون أى طائفة أو دين لأنهم هم واضعوة وليس مقررا سماويا لدين بعينة ، بينما مولوي يضع الشريعة الإسلامية قانوناً عاماً من عندياته باحتسابه ذلك مسلمة بدهية ، و دون اختيارها من كل أطياف المجتمع ، و دون أن

تعبر عن الصالح الاجتماعي العام بقدر ما تعبر عن رؤية ومصالح طائفية دينية بحت. أترون حجم العيب و ما يستشعره الدكتور من عار فيخفي السوءات بأوهام تشف و لا تستر.

و لا ينسي مولوي في ملحمة الكذب أن يضيف الكذبة المشهورة عن المصرى (ويسمية القبطى) الذي سبق بن عمرو بن العاص فضربه ، فشكي للخليفة عمر فأمر أن يقوم ابن الأذلين بضرب ابن الأكرمين قائلاً قولته المشهورة : متى استعبدتم الناس و قد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ، لأن ذلك الزمن كان زمن عبودية ، و لا يضرب إلا الحيوان و العبد ، فلما ضرب بن عمرو المصري الذي سبقه ، استفزت الخليفة العادل عمر ، لكن ليس لأن المظلوم قبطي ، لأنة كان عربياً يمنياً ، مصرياً ، أى حراً من عرب مصر ، ولأنه لا يجوز أصلاً السباق بين عربي مسلم و قبطي لفداحة المسافة بينهما ، لأن القبطي في الشرع الإسلامي أدني درجة في الحقوق من العبد المسلم ، وغير مسموح لة بركوب الخيل أصلا.

أما المساواة في المواطنة فقد قلنا وعدنا بشأنها و زدنا ، فليرجع من أراد المزيد لأعمالنا المنشورة ، فالإسلام و العرب لا يعرفون شيئاً اسمه المساواة ، بل يقسمون الناس منازل و انساب و رتب تختلف حقوقاً و واجبات ، و أهم علومهم علم الأنساب الذي هو علم عدم المساواة ، الذى يكاد يكون العلم الوحيد عند العرب.

فإذا كانت هذه أخلاق الصدق لدي الرواد المشايخ الدكاترة العلماء الهامات الطوال ، فهل ما نراه من تردي فضيلة الصدق في شارعنا الإسلامى ، هو ترديد الصدي لإسلام مشايخ الإسلام السياسي الذين استباحوا كل الفضائل في سبيل الغرض السياسي ، فكانوا المثل المعلم لشعوبهم في انعدام الأخلاق و القيم ؟.

يبدو أننا بحاجة ماسة إلى الصدق مع أنفسنا و مع تاريخنا دون شعور بدونية و لا خجل ، لأنه لا يصح قياس زمن الدعوة على زماننا ، فهو ظلم لزمانهم في الفهم و الفكر ، حتى لا نضطر طوال الوقت إلى الكذب و التضليل ، فنعتاد الكذب حتي يصبح هو حقيقتنا بينما يعلم العالم كله و يري سوءاتنا ، فالكذب لا يستر و الوهم لا يصلح ما لا يصلح لزماننا.

وجه المصيبة هنا توافق مشايخنا على الكذب ، و يبدو لنا بحكم أنهم علماء دين ، أنهم على علم تام بتفاصيل ما يكذبون بشأنه على المسلمين ، الذين ليس في طاقتهم تحصيل المعارف الدينية التي حصلها المشايخ.

إن هذا التواطؤ على الكذب يشير إلى شرعة عربية إسلامية ، فالكذب في سبيل الله مطلوب ، و في الحديث كذب إبراهيم (النبي) ثلاث كذبات كلها في الله : عندما قال

إني سقيم ، و عندما قال فعلها كبيرهم هذا ، و عندما قال لفرعون عن زوجته سارة أنها أخته. الكذب مطلوب تقية و مداراة إذا كان الصدق سيضر بالمسلم أو بدينة، علماء الحديث حبذوا أحاديث يعلمون أنها مختلقة مكذوبة ، لأنها تؤدي إلى مصلحة أو تحث على فضيلة. فأنظر يا مؤمن ولا تعجب من الوسيلة لبلوغ الفضيلة؟

و لازال لنا مع الفقهاء الثقاة الصادقين حوار .. و حديث قد يطول.